مَا وَرَاءَ الجَبَلِ

اسم الكتاب: ما وراء الجبل

التأليف: سعاد محمد

نوع العمل: رواية

تدقيق وإخراج فني: سالم عبد المعز سواح (عمرو سواح)

رقم الإيداع: 2021 / 26482

الترقيم الدولي: 978-977-835-271-9

الناشر: دار زحمة كُتَّاب للنشر والتوزيع

١٥ ش السباق – مول المريلاند – مصر الجديدة – مصر

دار زحمة كتاب للنشر

Facebook

Email za7ma-kotab@gmail.com

Tel 002 01205100596

002 01100662595

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة ©

لدار زحمة كُتَّاب للنشر

لا يحق لأي جهة طبع أو نسخ أو بيع هذه المادة بأي شكل من الأشكال ومن يفعل ذلك يعرض نفسه للمساءلة القانونية

ما وراء الجبل

(أسرارٌ تكمن بين الألم والحب)

رواية

سعاد محمد

أشرقتِ الشمس بنورها وبديع نسيجها الذي يطرق الشوارع والحارات، ويهبط على أسطح الأبنية ليداعب الفراشات والطيور فتظفر القلوب بذلك النهار الجميل.

تسمع خطواتٍ بسيطةٍ تدق على بساط الأرض، أُولئك الذين يعشقون النهوض مبكرًا إلى أعمالهم متوكلين على الخالق، لطلب الرزق.

هناك في تلك القرية البسيطة في بلاد المغرب تتكئ "مليكة" مستندة بيديها الصغيرتين على حافة النافذة، تتأمل غصن الريحان وهو يزفُّ بشراه بتلك الرائحة العطرة، فتهفو يرقات الأمل بشوقٍ وحنينٍ لتستقي الحياة بضفائرها الغنَّاء.

تلك الفتاة الهادئة، ساكنة الطباع والحركة، ذات الجمال الفتان كجوهر برّاق والعيون الزرقاء كسماء صافية.

حرة كالطير الرقراق في مشيتها، وكأنها تتوق لفك قيود الوثاق، فهي لا تحب الثرثرة كمثيلاتها الفتيات.

تُجيدُ فن الإنصات، تشتهي العزلة بنفسها كثيرًا في غرفتها في الدور العلوي في ذلك المنزل الصغير، المطل على الجبل الكبير في أطراف القرية.

كانت أم "مليكة" تمل من كثرة الصياح عليها، فهي تسكن عالمها الخاص، تتحرر فيه الروح من الجسد، وتسبح في عالمٍ خيالي.

مملكة من العواطف الجياشة، جنودها الورق والكتب، وأميرها القلم، وشعبها كلمات.

هائمة بعينيها تترقب القادم من شباك الغرفة المطل على الجبل، سائلة نفسها دائما السؤال نفسه: "تُرى.... ماذا ينتظرني خلف هذا الجبل؟"، وكأن شيئًا يناديها حتى إنها لا تشعر بمن حولها.

الجبل وما وراءه، هو الملاذ لبعض الناس وخاصة النساء اللواتي يلجأن إلى السحر والعرافين، ولكن "مليكة" لم تكن ممن يستمعون إلى هؤلاء المنجمين.

الحاج عرفة والد "مليكة" رجل يحفظ كلمات الله، ويعمل بها ويتخذ من تدينه الصد المتين والحائط المنيع لتلك الأسحار.

بينما انجرفت الأم وراء تلك الخرافات وآمنت بها، وتتردد عليهم من وقتٍ لآخر.

كانت "مليكة" تشرد بذهنها كثيرًا، وتصمت في أغلب الأوقات. بل تعاني من الإغماء أحيانًا. عرضها الحاج عرفة على العديد من الأطباء، ولكن الاتهام الأوحد كان لمرض فقر الدم (الأنيميا).

وبعد تناول العديد والعديد من الأدوية، واتباع أنظمة غذائية كثيرة، لا فائدة منها، لم يصلوا إلى شيء.

ربما كانت الأسباب من الناحية النفسية، وليست العضوية أدت إلى هذه الأعراض، لذا قرر والدها الحاج عرفة أن يعرضها على طبيبٍ نفسيٍّ لمعالجتها.

فهي تقف دائمًا صامتة، شاردة الذهن لا تستطيع التركيز في أي شيء، حتى إنها لا تسمع من يناديها. تسمرت أرجلها أمام النافذة وكأنّ قوى خفية تسيطر على جسدها ولسانها.

أخذت الأم في طرق الباب مرارًا وتكرارًا حتى تعبت يداها، و"مليكة" واقفة مستسلمة لشيء ما لا تعرفه؛ فقررت الأم كسر باب الحجرة لتطمئن على ابنتها فوجدتها قد تسَمَّرَت مكانها دون حراك. فأمسكت بكتف ابنتها تهزها هزًّا لتستفيق مما هي فيه. فوقعت "مليكة" على الأرض مغشيًا عليها، فحاولت الأم

أن تحملها لترفعها فوق الفراش، ولكنها لم تقوَ على ذلك. فنادت على الحاج "عرفة" والد مليكة:

- أسرِع يا حاج عرفة، أسرع؛ مليكة ملقاة على الأرض ولا أعلم ما بها!

فصعد الحاج عرفة قائلًا:

- ما بها؟! هل هو إغماء آخر؟ لم أعد أعرف ماذا أصابها، لقد سئمت البحث عن السبب. منذ سنين ونحن على هذا الحال، فلتقرئي لها بعض الآيات من القرآن؛ كل الأطباء أكدوا لنا أنه ما من سبب طبي لذلك.

فردت أم مليكة:

- لا أعلم ما السبب؟ غدًا سوف أفعل شيئًا لم أكن أنوي فعله من قبل.

فانتبه الأب لكلامها قائلًا:

- ماذا ستفعلين؟

صمتت الأم وأخفت كلامها بسرعة قائلة:

- لا شيء.. لا شيء.. كنت أتمتم فقط.

وبدأت "مليكة" تستفيق قائلة:

- ماذا حدث؟ ماذا حدث؟ أنا لا أتذكر شيئًا سوى أنني كنت هناك أنظر من الشرفة إلى ذلك الجبل ولم أشعر بشيء بعدها.

وبكت قائلةً:

- لماذا يحدث لي هذا؟ لماذا؟

فطبطبت الأم عليها وضمتها إلى حضنها لكي تهدأ قائلة:

- أنت أجمل البنات وليس في جمالك فتاة أخرى في هذه البلدة، لا تبكي، غدًا سأجد الحل، غدًا إن شاء الله، لا تقلقي يا حبيبتي.

فتلقت "مليكة "كلمات أمها براحة الابنة التي قد سلمت أمرها لأمها وهي على يقينٍ أنها ستؤازرها.

*****

استغرقت "مليكة" في نومها لتبدأ معاناة جديدة في أحلامها؛ فهي تحلم بمكان ليس هو المكان الذي تعيش فيه، وترى دائما أناسًا لا تعرفهم وكأن روحها تطير إلى مكان آخر لتعيش أوقاتًا وحياة لم تكن تعرفها من قبل.

نامت "مليكة" وقتًا طويلًا، يكاد يكون يومًا كاملًا حتى بدأ صباح اليوم التالي بنفحاته... بدأت الأم تستنهض همتها بنشاط بالغ، وصعدت إلى غرفة "مليكة"، ففتحت الباب في هدوء، تكاد لا تسمع همسًا سوى أزيز الباب. وعينها على فراش "مليكة"، فلم تجدها إلا شاخصة البصر تنظر من النافذة كعاداتها بصورة مخيفة كأنها مسمّرة في الأرض فحدثت نفسها قائلة: "لا! لن أصبر أكثر من ذلك". فلحفتها برداءٍ أسودَ طويلٍ وأمسكت بيدها بشدة واتجهت مسرعة إلى عرافة الكهف التي تستوطن أطراف الجبل.

كانت الأم تتنافس مع الطريق في العدو وكأنها في حلبة سباق. حتى وصلت أخيرًا إلى مرادها مع ابنتها البالغة من العمر الثامنة عشر ربيعًا. فنادت على العرافة من الخارج، فقد كانت تخشى الاقتراب، ولكن دون جدوى، فلم تكن العرافة لتسمعها

عن بعد؛ فحاولت الدخول رويدًا رويدًا، ولكن الكهف كان مظلمًا بشدة. حتى كادا أن يسمعا أنفاسهما، قالت الأم:

- أين ذهبت تلك العرافة؟ أين هي؟

حتى فوجئت الأم بمن تضع يديها على كتفها فارتعشت وصرخت صرخةً قوية أرعبت "مليكة" وأبكتها بشدة، وكانت العرافة تشبه الساحرات اللواتي نراهن في القصص الخيالية.

هدأت الأم قليلًا وما إن بدأت تقُصُّ ما يحدث لمليكة حتى استوقفتها العرافة فجأة بشدة فأرهبتها قائلة:

- اصمتي! اصمتي! ألم تتنبهي يومًا لعينيْ مليكة! ألم تلاحظي أن عيونها تشبه عيون قطة!

وطلبت العرافة من الأم العودة إلى بيتها وترك "مليكة" معها، ولا تسأل عنها إلا بعد يومين وأمرتها بالخروج فورًا.

استسلمت الأم للخروج بسرعة، وعادت إلى البيت وهي تفكر، قائلة لنفسها: "ماذا أقول لأبيها؟ لا أعلم ماذا أفعل؟ وكيف تركتُ ابنتي معها ووثقتُ فيها بهذه السرعة؟ ماذا فَعلتْ بعقلي لأفعل ذلك؟ سأقول له إنني قد تركتها مع خالتها ليومين لتستريح قليلًا. نعم سأقول ذلك".

عادت الأم إلى المنزل وأخبرت الأب بما قد نوت عليه. ومر اليومان بصعوبةٍ شديدةٍ على الأم، وهي لا تعرف شيئًا عن "مليكة".

تُرى هل أصبحت بخير؟

وماذا تفعل مع العرافة؟؟

وهل تستطيع النوم في هذا المكان المظلم الذي لا يُضيئه إلا الشموع؟

وبمجرد انتهاء المدة التي أقرتها العرافة، حتى طارت الأم إلى الكهف لإحضار ابنتها، اقتربت وتحسست المكان على أطراف أصابعها لتصل إلى العرافة لتسألها، ففاجأتها من خلفها فأفزعتها.

أشارت العرافة إليها بالعودة إلى المنزل وسوف تجد ابنتها في فراشها، وعليها التعامل معها كأن شيئًا لم يحدث في حياتها.

استسلمت الأم لحديث العرافة مسرعة للعودة إلى البيت. وبالفعل ما إن وصلت إلى المنزل حتى وجدت ابنتها في فراشها، فتعجبت لما حدث وتساءلت في نفسها: "كيف وصلت ابنتي

هنا إلى فراشها؟!"، ولكنها اعتقدت أنها عادت بمفردها، كما أخبرتها العرافة. وتركتها لتستريح قليلا ثم أيقظتها.

حين أيقظتها فوجئت ب "مليكة" أخرى تضحك وتمرح وتجري في المنزل وكأنها طفلة صغيرة لا تتجاوز السادسة من العمر.

فرحت الأم ولكن التساؤلات بداخلها تتسارع مع بعضها. تُرى ماذا حدث؟ ولكنها سرعان ما قررت عدم التواصل مع تلك الأفكار.

بدأت "مليكة" في التصرف كباقي الفتيات اللواتي يمرحن ويخرجن ويتعاملن مع أدوات العصر الحديث؛ فطلبت من أمها أن تشتري لها هاتفًا محمولًا كصاحبتها.

وبالفعل اشترت الأم هاتفًا محمولًا، وبدأت "مليكة" في استخدامه. وأنشأت حسابًا خاصًا بها على مواقع التواصل الاجتماعي وبدأت بإضافة أصدقاء جدد.

يومًا بعد يوم تعرفت على شاب مصري اسمه "خالد" وسيم الشكل، بهي الطلعة، يبدو كذلك من صورته على صفحته الشخصية.

وبدأ الحوار بينهما.

خالد: هل يمكننا الحديث معًا؟

مليكة: من أنت؟ أنا لا أعرفك؟

خالد: أنا شاب مصري، متابع لك على موقع التواصل الاجتماعي منذ مدة، أقرأ كتاباتك كلها، لا أعلم ما الذي يشدني للحديث معكِ كل يوم؟

مليكة: بهذه السرعة؟! أتحكُم على شخصي وحياتي من خلال كتاباتي وتعليقاتي.

تنهدت "مليكة " وصمتت كثيرًا؛ فهي لم تكن معتادة على الكلام مع الجنس الآخر، فكل تعاملاتها مع الجنس الآخر لم يتعدَّ ذلك التعامل اليومي مع أبيها.

خالد: لن أضغط عليكِ، سأكلمكِ غدًا.

مليكة: سأفكر....

خالد: سأنتظر، أنا واثق أنك ستجيبين.....

تبسمت "مليكة" في سريرتها وقد ملأت وجنتيها الحيوية والبهجة، وجلست على أريكتها وشردت بذهنها بعيدًا، ولكن

هذه المرة، لم يكن شرودًا كشرود الماضي، ولكنه ذلك الشرود الجميل، الذي يملأه الشجن اللذيذ.

شجن لا يحمل معاني الحزن بقدر ما يحمل من معاني الشغف، الشغف الممزوج بالخوف والرغبة معًا...

ترددت "مليكة" في اتخاذ القرار.

هل تتحدث معه؟

هل تعيش تلك اللحظات التي لم تكن تعرفها من قبل؟

وهل يقبل أبوها وأمها ذلك الأمر؟

هل ستخبرهما؟ أم ستحتفظ بذلك الأمر سرًّا؟

ظلت تتساءل حتى غلبها النوم.

استيقظت "مليكة" وفتحت عينيها على هاتفها المحمول لترى الكثير من الرسائل التي أرسلها خالد لها.

صور وورود جميلة وكلمات لطيفة، أشعرتها بالسعادة.

عبارة "صباحي اليوم أجمل مع "مليكة"".

أثرت فيها تلك الكلمات الحانية، فهي أول كلمات تطرق أذنيها.

أول كلمات تشعرها بأنوثتها، فاستسلمت لتلك الكلمات، والمشاعر التي اختطفتها.

ووجدت نفسها تتحدث معه:

مليكة: على الرغم من أني لا أعرفك، إلا أنني أجد نفسي تواقة إلى الحديث معك... لا أعرف لماذا أتحدث إليك؟

خالد: لأنني خفيف الظل، أرسم البهجة على وجه كل من أحدثه، ولأنني أحب الحب نفسه، ولأنكِ تحبين الكلام معي.

مليكة: من أخبرك بأنني أريد الحديث معك؟ أنت إنسان مغرور!

خالد: وأنتِ جميلة.

احمرّ وجهها خجلًا..... وسألته:

- ما الذي أخبرك أني جميلة؟ أنا لم أضع أيّ صورٍ لي على حسابي الشخصي من قبل.

ضحك خالد وقهقه بصوتٍ عالٍ قائلًا:

- "لقد فتحتِ الكاميرا سهوًا، وأنت تتحدثين معي البارحة دون أن تشعري! ثم أغلقتِها بعد ذلك... صورتك وأنت تتحدثين بعفوية وخجل لا تفارقني أيتها الجميلة.

بالرغم من أنها لم تستغرق سوى ثوان؛ إلا أنها محفورة في قلبي أيتها القيثارة".

شعرت "مليكة" بسعادة لم تعرفها من قبل.

شعرت بالوخزة، تلك الوخزة التي تأتي فجأة، ليس لها سلطان، تقف الروح مكبلة، مقيدة بأغلال العشق والهوى، لا يعي معنى الشعور بتلك (الوخزة) إلا من أصابته، من يتذوقها فقط هو من يستطيع البوح بأسرارها.. من يتذوقها فقط هو من يستطيع وصف ملامحها، فهي هبة ومنحة لا تُعطى أو تُمنح لأي أحد.

أحاسيس فياضة تغمر جسدها، لا تستطيع التوازن أو السيطرة فهي لا تلتمس منه الاعتذار. هي تتحسس لتسمع ذلك الكلام، حلو المذاق. ذلك الكلام الذي تعده الترياق الذي يشفيها ويروي ظمأها.

أصبحت "مليكة" أشبه بالطير الرقراق؛ فقد نثر خالد لها في أروقة مملكتها الزهور، وفك قيود الوثاق، فالروح تسمو بالتراق... والجسد يهوى النفاق.

مليكة: أنا أيضًا أريد التحدث إليك طوال الوقت، دون أن أشعر ما السبب.

خالد: تمنيتُ الحوار عناقًا مفعمًا بكل معاني الاشتياق من زوجٍ إلى زوجته.

مليكة: ماذا تقول؟!

خالد: نعم، أقولها وبصدق، كلي أشواق وحنين تتلاحق حولي وتحفني لأطير إليك الآن حيث تكونين.

مليكة: أشعر بالخجل، فقد تلعثم لساني عن الكلام.

خالد: ظللتُ أبحث عنكِ سنوات طوال، أهفو لهذا الزواج منك.

مليكة: بهذه السرعة؟!

خالد: نعم، لم أكن يومًا ذلك الشاب، الذي يغوي فتاة، ويوقعها في شرك الحب، دون أن يتزوجها.

مليكة: وكيف تراني بعقلك وقلبك؟

خالد: أراكِ نقية كماء المطر، لن يرزقني الله إلا بمثل نقائك، لأنني عاهدته ألا أحدّث فتاة، لا أنتوي الزواج منها.

وتوالت الأيام، وتوالت المكالمات بينهما، ولا يمر يومٌ إلا وقد تحدثا معًا، أصبح الحديث اليومي بينهما كأنه غذاء روحي، كأنه الهواء الذي يستنشقانه.

خالد: هل تقبلين الزواج مني؟

مليكة: لا أعرف الجواب؛ فأنا هنا في المغرب وأنت هناك في مصر بعيدًا عني فكيف سيكون ذلك؟ وهل أستطيع مغادرة بيتي وبلدي، دعني أفكر.

ثم أنهت الكلام معه ونظرت إلى النافذة على الجبل وكأنّ هناك رابطًا يربطها بذلك الجبل. رابط غير مرئي؛ محسوس فقط. ثم فكرت أن تتشارك الرأي مع أمها.

بالفعل أخبرت أمها بعرض الزواج وأنها ستغادر المغرب لو وافق أبوها الحاج عرفة على ذلك.

وكان الحاج عرفة رجلًا طيبًا يحب ابنته مليكة جدًّا وكان يميل إلى علاج مليكة بالقرآن. ولم يكن يعرف أي شيء عما فعلته الأم مع العرافة وأنها قد لجأت إليها لعلاج مليكة.

ذهبت مليكة إلى الحاج عرفة في ورشته الصغيرة في وسط القرية، وأخبرته بعرض الزواج الذي قدمه خالد المصري. كان الأب أكثر فرحًا بهذا الموضوع من أمها.

كانت الأم مرتبطة ارتباطًا شديدًا بمليكة وكانت تميل إلى أفكار الشعوذة وتهوى اللجوء إلى العرافة طوال الوقت. فوجد

الأب من هذا العرض للزواج والسفر بعيدًا عن المغرب حلًّا لحياة مليكة وفرصة للخروج من تأثير الأم عليها في هذه الأمور. فرحّب بهذا العرض وأخبر مليكة أنه يشعر بالراحة لهذا الموضوع. وطلب منها أن تطلب منه بياناته بالكامل. وأن يأتي إلى المغرب لزيارتهم لمدة أسبوع على الأقل ليمكث معهم فترة وجيزة في البلدة للتعرف عليه، كل ذلك بينما كانت الأم غير راضية عن ذلك الموضوع ولكنها رضخت لهما على استحياء.

أسرعت مليكة إلى البيت للتحدث إلى خالد واتصلت به قائلة له:

- لقد تحدثتُ مع أبي في عرض الزواج، وأخبرته عن رغبتك في ذلك.

فأجابها خالد بفرح:

- لا أصدق أنّ أباكِ وافق على الزواج. أنا أطير فرحًا الآن وسأبدأ من الغد عمل ما يلزم للسفر. أشعر أن هذا الأسبوع سيكون أسعد أيام حياتي.

تحاورا معًا في حبٍّ وسعادةٍ وبالفعل بدأ خالد في إجراءات السفر للمغرب وحصل على إجازة من العمل واتصل بمليكة وأخبرها بميعاد وصوله.

شعرت مليكة بالسعادة الغامرة وأخبرت أمها وأباها بميعاد وصوله. ولكنّ الأم لم تكن سعيدة بذلك، فتركتهما يرتبان المنزل للاستعداد لقدوم العريس "خالد" وذهبت إلى العرافة الساكنة في الكهف المظلم في ظلام الليل الدامس.

مشت الأم على أطراف أصابعها حتى وصلت إلى الكهف المظلم، لتشاور العرافة بأمر ابنتها وكالعادة شعرت بالخوف الشديد؛ لأن المكان أصبح مخيفًا أكثر مما كان عليه في السابق وظهرت العرافة فجأة لها، لتخبرها بأن ما جاءت إليه لن تستطيع الوقوف دون حدوثه قائلة:

- ما الذي جاء بكِ إلى هنا؟

وقبل أن تخبرها الأم بشيء أجابتها العرافة:

- لن تستطيعي أن تفعلي شيئًا. كل شيء مكتوب، كل ما أستطيع أن أفعله لكِ أن تأخذي هذه الحبوب وحاولي أن تواظب "مليكة" على تناولها يوميًّا. فهذا سيحميها، انصرفي الآن.

فرجعت الأم مسرعة إلى البيت، وسألها الحاج عرفة:

- أين كنتِ؟

- كنت هنا قريبًا عند جارتي.

لم يبدُ على وجه الحاج عرفة الاطمئنان، ولكنه حاول التحدث في أمور أخرى، لكي لا يلفت انتباه "مليكة" عما تفعله أمها. وقرر التركيز مع خالد أكثر مما كان ينوي.

وبالفعل جاء ميعاد وصول الطائرة، فذهب الحاج عرفة لاستقبال خالد في المطار.

كان خالد يتمتع بالنظر إلى الطبيعة الخلابة في بلاد المغرب في أثناء سيرهما. وأخبر الحاج عرفة أنه يشعر بالسعادة كثيرًا فهو متشوق لرؤية مليكة. وطلب منه الإسراع في السؤال عنه وعن عمله وأهله لكي يبدأ في عمل الورق اللازم للزواج.

وصلا إلى القرية واقتربا من البيت. ثم طرق الأب الباب ففتحت لهما "مليكة" ووجها يملؤه الشغف لرؤية وجه حبيبها. فهي تراه لأول مرة على الطبيعة.. فتصافحا يدًا بيدٍ طويلًا، ولم يشعرا كم طال من الوقت ويدهما متلامستان، إلا أن "خالد" قد شعر برهبة بسيطة في قلبه حينما نظر إلى عيني مليكة التي

تشبه عيون القطة، هما عينان جميلتان تلمعان، من شدة جمالهما قد أصبحتا مخيفتين. ولكنه أفاق نفسه بسرعة وتدارك أنه الجمال الخلاب الذي يبهر العين. ثم سلَّم على الأم، حيث شعر منذ الوهلة الأولى أنها لا ترحب به، ولكنه قد فسر ذلك لنفسه قائلًا: "إن حبها الشديد لابنتها هو وراء تلك النظرات".

كان الأب قد جهز غرفة الضيوف خارجًا بالفناء، وطلب منه الذهاب إلى تلك الغرفة للاستراحة.

بعد تناول الطعام ذهب خالد إلى غرفة الضيوف ونام حتى منتصف الليل، وعندما استيقظ شعر بهدوءٍ شديدٍ في الخارج، ولكنه سمع صوت خرفشة خارج الغرفة.

لم يكن خائفًا في البداية ظانا منه أنها قطة ولكنه عندما أزاح ستار الغرفة بهدوء شديد، وتخفى من وراء الستارة، صُدم بوجهٍ أسودَ غريبٍ ملاصقٍ للزجاج أمام عينيه ففزع وصرخ صرخة كبيرة سمعها البيت كله فنزلت مليكة من غرفتها مسرعة هي وأبوها وأمها.

طرقت "مليكة" الباب بشدة، ففتح خالد باب الحجرة، وتصرف كأنه لم يرَ شيئًا البتة. فسألته الأم قائلة:

- لماذا صرختَ بشدة؟

فأجابها:

- أنا لم أسمع أي صرخة أو أي صوت، لقد كنت نائمًا.

فتحدث الأب قائلًا:

- لعل الصوت جاء من جانب الجبل، وقد اختلط علينا الأمر، فلتأتِ معنا لنشرب القهوة ونتحدث قليلًا.

لقد كذب خالد بشأن صرخته؛ لم يشأ أن يرتاب الحاج عرفة منه، أو يظنه شابًّا ضعيفًا في نفسه.

ذهب خالد معهم إلى داخل البيت وبدأوا في الحديث.

كان الأب مشغولًا بالاتفاق مع خالد على أمور الزواج، وكانت "مليكة" فرحة بأمر زواجها. أما الأم فكانت قلقة وغير مطمئنة له، إلا أنها كانت مطمئنة لما قالته لها العرافة.

بدأ خالد يخرج مع "مليكة" للتنزه فأخذتهما أرجلهما للتنزه في طريق الجبل الذي كانت "مليكة" دائمة النظر إليه منذ صغرها.

خالد: ما هذا الجمال الساكن في ذلك الجبل؟! أترين؟! جمال عينيكِ يتناسب مع جمال الجبل يا "مليكة".

فاحمر وجهها خجلًا وقالت له:

- كنت أخاف من ذلك الجبل، أما الآن فأنا أحبه لأنني معك.

فأمسك بيدها؛ ليقبلها قبلة الأمراء وكأنه فارسٌ يمتطي الجواد ومن ورائه الأميرة الجميلة ذات عيون القطة البراقة.

استمتعا بأوقاتهما وكأنهما يطيران من فوق الأرض، ثم عادا إلى البيت واتفقا على النزول إلى البلدة في اليوم التالي.

وكانت "مليكة" تشعر ببالغ السعادة.

في اليوم التالي انطلق العروسان إلى البلدة بكلّ نشاطٍ وهمة. وكانت "مليكة" تود التجول في طرقات البلدة إلا أن "خالد" دائمًا يتجه صوب الجبل، وكأن شيئًا ما يدفعه للسير إلى هناك.

كانت مليكة تقنعه للدخول إلى عمق الزحام في القرية. إلا أنه كان ينسحب بشكل هادئ ورقيق فهو عاشق للهدوء والمناظر الطبيعية.

وتجد "مليكة" نفسها متجهة معه صوب الجبل وكأنها تساق سوقًا إليه.

في بداية اليوم كانا يستمتعان وكانا يتبادلان الحوار بشكل لطيف، ثم بدأت الشمس تغيب.

تحدثت مليكة قائلة:

- خالد! هيا بنا..... لا أستطيع المكوث في هذا المكان عند الظلام.. المكان صار يخيفني. هيا بنا نستعد للرجوع فأنا خائفة.

فأجابها خالد:

- أتخافين وأنا معك؟ لا تقولي ذلك مرةً أخرى فأنا حارسك الأمين يا مولاتي.

نظر في عينيها الجميلتين التي تشبه عيون القطة وأمسك بيدها برفق ليقبلها قبلة الملك لملكته، لكنها فزعت بشدة وارتجفت وبعدت عنه. ثم بدأت تجري مسرعة للابتعاد عن الجبل.

لم يكن خالد يتوقع ردة فعل "مليكة" وبدأ باللحاق بها إلا أنها أسرعت بشكل جعلها تختفي بين الأشجار حتى أنه لا يستطيع أن يراها فقد بدأ الظلام يسود شيئًا فشيئًا....

- أين أنت يا مليكة؟ مليكة! أين أنت؟ لا أستطيع أن أراكِ.

فزع خالد وبدأت أعصابه تتوتر... ثم صار يمشي في هدوء بين الأشجار لا يسمع سوى صوت الغابة الملاصقة للجبل وكأن كل شيء قد تغير فجأة؛ فقد تحولت الصورة البريئة للجبل التي كان يعشقها إلى صورة مخيفة ومرعبة.

لم يستسلم خالد وظل يجري بين الأشجار للبحث عن حبيبته التي اختفت بعد أن كانت بين يديه منذ لحظات.

بينما خالد ينادي على مليكة إذ بيدين تطبطب على كتفه ففزع وتسمّر مكانه كالصنم وهرب دمه وشل لسانه عن النطق. ثم التفت إلى الوراء ليرى من يكون، فوجد مليكة تمسك به وهي خائفة وتلتصق به كالطفلة التي تحتمي بأبيها.

مليكة: قلت لك أريد أن أرحل من هنا.

خالد: ما الذي أفزعكِ هكذا؟! ما الذي جعلكِ تركضين بهذه السرعة؟

مليكة: لا شيء. أتوتر من وجودي بالقرب من هذا الجبل.

فهدأها خالد وعادا راجعين إلى البيت.

لم يكن يدرك خالد ما يحدث لمليكة، شرد بذهنه قليلًا..... لكنه لم يمعن التفكير بعمق عما حدث لها.

وصلا إلى البيت ويعلو وجهيهما الشحوب قليلًا.

نصبت الأم عينها على ابنتها قائلة:

- ما بكِ يا مليكة، يعلو وجهك الخوف وكأنك كنتِ تركضين.

تلاعبت "مليكة" بالكلام مع أمها، وأبدت لها الفرحة المزيفة والضحكة المصطنعة، حتى لا تشك في كلامها. ثم دخل الحاج عرفة من الباب سائلًا عن العشاء.

فأسرعت الأم إلى المطبخ هي و"مليكة" لإعداد العشاء، وذهبا كلّ من خالد والحاج عرفة للجلوس في الفناء خارجًا.

سأل خالد الحاج عرفة قائلًا:

- يسعدني أن أطلب منك يا عمي، يد ابنتك "مليكة".

فسكت الحاج عرفة قليلًا، ثم أجابه:

- أشعر بطيبتك يا خالد. كما أستشعر حبك لابنتي، سألت عنك في عملك وعلمت نزاهتك واجتهادك. لذا..... أقولها الآن، أنا موافق يا خالد.

فطار خالد فرحًا وسعادةً واحتضن الأب ثم أسرع مناديًا لمليكة.

فجاءت "مليكة" ملبية نداء حبيبها وعريسها، وهي تحفها الفرحة. فقد استشعرت موافقة أبيها.

عمَّت الفرحة البيت كله، إلا أنّ الأم لم تكتمل فرحتها؛ فهي خائفة من شيء ما.

*****

عاد خالد إلى القاهرة لاستكمال أوراق "مليكة"، ولإعداد عش الزوجية.

كان خالد يتيم الأب والأم، ولم يكن له أخوة. يقيم في شقة بمفرده، وهو فتى خجول لا علاقة له بالجيران على الإطلاق، وأغلب أفراد عائلته يعيشون متفرقين في أماكن بعيدة وبلدان مختلفة. شغلتهم أعمالهم وحياتهم عنه، حتى إنهم قد فقدوا الاتصال به يومًا تلو الآخر.

لقد كانوا مهتمين به في أثناء صغره، ولكن ما إن شب وترعرع حتى انقلبوا إلى حياتهم منشغلين بها.

كان خالد في بداية حياته يشعر بالضيق والحزن، ولكنه قرر في ذات نفسه أن يحلم بعائلته الجديدة التي ينوي أن ينسجها.

أصبح خالد دائم الاتصال بمليكة، فهي الحب والأنس الذي سيملأ حياته، حتى إنه حين ينام يراها في أحلامه، وكأنها تحيا معه.

ازداد تعلق خالد بمليكة يومًا بعد يوم، مما دفعه إلى الإسراع لإتمام الأوراق الخاصة لاستقدامها.

*****

بينما خالد متلهفًا للإسراع بزواجه، كانت "مليكة" في المغرب ترتب لأمور زواجها.

الحاج عرفة يعلن مَن حوله من الجيران والأصدقاء بنبأ الزواج، والأم منشغلة طوال الوقت بترتيب ما تحتاجه ابنتها من متعلقات وملابس للسفر إلى بيت زوجها في القاهرة.

اجتمع الجيران والأهل والأحباب للاحتفال بمليكة. فقد تبقت أيام قلية للسفر إلى القاهرة.

وفي أثناء انشغال الجميع في الدور الأرضي لليلة الحناء، نجد مليكة مشغولة بترتيب حقائب السفر. وفجأة تلتفت وراءها لتجد العرافة قد ظهرت بشكل مخيف.

ارتعبت "مليكة" رعبًا جعلها تثبت في مكانها كأنها صنم لا يتحرك.

لم تستطع النطق، ولا حتى تحريك يديها، لا تستطيع فعل أي شيء سوى النظر إلى العرافة والتساؤل: "كيف دخلت هنا؟".

فلاحقتها العرافة بكلامها قبل أن تسأل:

- أين أنت ذاهبة يا "مليكة "؟

وضحكت ضحكة عالية يملأها الغضب والغموض.

- أترغبين في الهرب من الجبل؟! الجبل مصيرك يا "مليكة" إنه قدر محتوم، ستعودين إلى الجبل يا "مليكة"، ستعودين إلى الجبل.

وانصرفت في لمح البصر.

أما "مليكة" فكانت تلملم أنفاسها لكي تتعافى مما فيه وما حدث سائلة نفسها: "هل تحكي ما حدث وهي تعرف أن أمها ستتعلق بكلام العرافة، أم تلتزم الصمت حتى لا تعكر صفو الفرح الذي يملأ البيت؟".

في النهاية.....

قررت "مليكة" أن تتناسى ما يحدث، كأن شيئًا لم يكن، كما شعرت في قرارة نفسها أن تنظر إلى حياتها القادمة بصورة تختلف عن سابق ماضيها.

وانخرطت بشكل أو بآخر في زخم الحياة الجديدة مع حبيبها وزوجها.

جاء موعد السفر.....

ذهب كل من الأم والحاج عرفة مع مليكة – التي كانت ترتدي فستان الفرح- إلى المطار للحاق بالطائرة. فقد قام خالد بالحجز لكلّ من الأم والأب للوجود مع ابنتهما والاطمئنان عليها في بيت زوجها، وبالفعل.... أقلعت الطائرة.

بينما تقلع الطائرة، تنظر "مليكة" من الشباك.... وكأنها تنظر إلى ماضيها. ترى طفولتها في شوارع القرية... ترى أيام الدراسة... تتذكر زميلاتها... تنظر إلى الجبل وكأن شيئًا يربطها به قد ينقطع بالسفر بعيدًا.

ثم التفتت لتنظر إلى أمها وأبيها... التفتت لتنظر إلى حاضرها، وإلى مستقبلها القادم.....

تفكر في خالد حبيب القلب والروح الذي تعلقت به وأصبح أملها المنشود.

ابتسمت وانتظرت وقت هبوط الطائرة، لترى "خالد"؛ فقد غلبها الشوق إليه.

بعد مرور حوالي أربع ساعات هبطت الطائرة وبدأوا في ختم جوازات السفر بختم الوصول، وكان قلب مليكة يدق مع

كل ختم يلمس الأوراق، وكأن شعورًا ما يهمس في أذنيها، في حين انشغل المسافرون من حولها بالنظر إلى فستان فرحها وعيونها الجميلة البراقة.

على باب الوصول وقف خالد متلهفًا لحضور عروسه، امتلأت يداه بالورود الجميلة التي سيقدمها لعروسه، وبالفعل تلاقت العينان معا.

استقبل خالد "مليكة" بحضن العاشقين المتلهفين، والتفت يده في خصرها كأنه يراقصها على مسرح تملأه الأنغام.

كان الحاج عرفة فرحًا جدًّا بابنته راجيًا الله أن تكون قد تعافت مما كانت فيه سابقًا.

أما الأم فكانت غير مطمئنة، فهي خائفة من بُعد مليكة عنها وهل تستطيع متابعة حياتها دون مشورة العرافة.

غادر الجميع أرض المطار متجهين إلى الاحتفال بزفاف مليكة وخالد، فقد استأجر مكانًا صغيرًا يحتفلون فيه بالزفاف وعقد القران معًا.

لاحظت الأم أن الاحتفال قد اقتصر عليهم فقط، فلم يحضر أيّ من أقارب خالد.

أما الحاج عرفة فلم يهتم إلا بالنظر إلى مليكة وخالد، وإلى فرحتهما.

خالد: أشعر بفرحة تغمرني، أنا لا أصدق ما يحدث لي، كم أحبك أيتها القيثارة.

"مليكة": أنا لا أشعر بجسدي، وأنا معك وكأني فراشة تتطاير في الهواء.

ثم تراقصا معا على أنغام الموسيقى، التي تملأ المكان.

مر الوقت بسرعة وانصرفا إلى عش الزوجية، واتجه الأبوان إلى الفندق.

وصل خالد بعروسه إلى المبنى السكني الذي يقطنه، وكان كل من فيه ينظرون من النوافذ إلى العروس الجميل.. بعدما أطلق خالد بوق السيارة بصوتٍ عالٍ مرارًا وتكرارًا..

الجميع فرحون ويبتسمون للعروسين، يتهامسون بجمال "مليكة" وعيونها التي تشبه عيون القط السيامي الجميل.

فتحت "مليكة" باب عشها لتدخله، حيث أصر خالد على حملها بين يديه فرحًا بها ولكي تتعلق به، وقد التفت يداها حول رقبته وركنت برأسها على صدره لتتدفأ بحنينه.

بمجرد أن أحكم خالد غلق باب الشقة، انقطع التيار الكهربي.

عمَّ الظلام الدامس، اتجه خالد إلى المطبخ ليبحث عن شمعة. وجدها وأوقدها وظل يتحسس المكان باحثًا عن مليكة.

خالد: مليكة، مليكة، أين أنت؟

ارتسم على وجهه الاستغراب سائلًا نفسه: "أين تكون؟". وظل يفتح الأبواب كلها، باحثًا عنها حتى وصل إلى آخر حجرة، وضع يده عل مقبض الباب ليفتحه ببطء، وإذ فجأة.....

يد تلمس كتف خالد من خلفه.....

هرب دمه...

وتلجم لسانه عن النطق والتصقت رجلاه بالأرض...

إنها مليكة...

سألها عن عدم ردها عليه عندما كان يناديها فأجابته:

-أنا أخاف الكلام في الظلام.

فضمها إلى صدره، ليطمئنها.

سرعان ما عاد التيار الكهربائي للبيت.

ثم استغرقا في النوم... حتى صباح اليوم التالي.

استيقظت "مليكة" من نومها وقد فتحت عيونها الجميلة، على منظر جديد.....

مشهد جديد يختلف كل الاختلاف عن سابقيه. تلك المشاهد القديمة لرؤية الجبل التي اعتادت أن تراه كل صباح في بيت أبيها.

فحينما ألقت نظرة من نافذة الحجرة المطلة على الشارع العمومي للحي، تفاجأت بزحام السيارات والصخب الذي يملأ الشارع، إلا أنها لم تنزعج من ذلك..... على العكس تماما، فقد استمعت بالمشاهدة وكأنها تستمع بفيلم سينمائي.

هناك على ناصية الشارع..... عربة الفول التي يجتمع حولها الذاهبون إلى عملهم، لتناول أطباق الفول والقليل من البصل.....

تبسمت "مليكة" لهذا المنظر، وتمنت أن تتناول معهم طبق فول.

فاجأها خالد وهو يحتضنها من ورائها، واضعًا يده في خصرها، هامسًا في أذنيها قائلًا:

- أترغبين في تناول طبق من الفول، عند العم حسن؟

فالتفتت له وقد تعلقت في رقبته، كالطفلة الصغيرة التي تقف على أطراف أصابعها لكي يحملها أبوها، وردت قائلة:

- أنت رائع يا خالد، تعلم ما أتمناه قبل أن ينطق به لساني، وكأنك مقيم بداخلي.

طلب منها خالد أن تغير ملابسها لكي يتناولا الإفطار عند العم حسن. وبالفعل ذهبا..... وتناولا الإفطار والسعادة تغمرهما، والضحكات على وجهيهما.

ثم ذهبا للتمشية على كورنيش النيل، وشربا القهوة.

وبعد مرور الوقت، قررا العودة إلى البيت..... وهما في المصعد قابلهما جارهما المهندس "محمد".

رحب المهندس محمد بهما بشدة وهنأهما على الزواج، ولكن خالد لم يكن أبدًا يرتاح في الكلام معه، ولم يعجبه نظرته اللئيمة إلى "مليكة ".

ساد الصمت المكان عندما دخلا الشقة وكأن على رؤوسهما الطير.

سألته "مليكة":

- لماذا لا تتكلم؟ هل حدث شيء؟

فأجابها:

- لا أريدك أن تتحدثي مع هذا الرجل، ولا أريدك أن تتعاملي مع أيّ من ساكني هذا العقار.

فغضبت "مليكة" من كلامه، وتركت المكان وذهبت إلى حجرتها.

على الرغم من مشاعر خالد الجياشة، إلا أنه لم يلاحقها ليسترضيها، وكأن رغبته لعدم الاختلاط بالجيران، قد طغت على حبه لها.

المهندس "محمد" كان مقيمًا في الشقة بمفرده، ولكنه كان معروفًا بالتودد إلى الجيران والتعرف عليهم، كما أنه مجامل لهم في جميع المناسبات، ويسكن في الشقة المواجهة لشقه خالد ومليكة.

دق جرس الباب.....كان الحاج عرفة والأم قد قدما للاطمئنان على مليكة ولكي يودعاها قبل السفر.

فتح خالد الباب ورحب بهما.

جلس الحاج عرفة للحديث مع خالد على انفراد.

بينما دخلت الأم لابنتها "مليكة " للاطمئنان عليها، تبادلت كل من الأم وابنتها الحديث، وتحدثتا في كل شيء.

قبل مغادرة الأم حرصت على إعطاء "مليكة" ما أخذته من العرافة، وأكدت عليها أن تتناوله قبل أن تنام كل ليلة. ولم تتحرك من مكانها إلا بعد أن اطمأنت أن مليكة ستفعل ما طلبته.

نادى الحاج "عرفة" على زوجته؛ فقد اقترب ميعاد الطائرة وعليهما المغادرة على الفور، أسرعا في وداع ابنتيهما الجميلة واتجها إلى المطار، وبالفعل صعدا إلى الطائرة المتجهة إلى المغرب.

وقد دار بينهما حوار متبادل في أثناء الرحلة.

سألها الحاج "عرفة":

- ماذا كنتِ تفعلين مع مليكة؟ وعما كنتما تتحدثان؟ وماذا كان في يديكِ؟

تلعثمت الأم قليلا، وأجابته:

- ما الذي تقصده؟

أجابها:

- أشعر أن هناك شيئًا تخفيه عني، ذلك الشيء مرتبطٌ بالعرافة، لقد حذرتك مرارًا ألا تلجئي لتلك العرافة؛ قال الله تعالى في كتابه الكريم:

﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ ﴾[1]

صدق الله العظيم.

ثم سكتا عن الكلام معًا حتى هبطت الطائرة.

كانت "مليكة" مندهشة لإصرار زوجها على عدم الاختلاط بالجيران، إلا أن خالدًا حاول التودد إليها ليصالحها.

توالت الأيام بسرعة، وعاد خالد إلى عمله، حيث كان يعمل محاسبًا في شركة مقاولات كبيرة، ويعد من الموظفين المميزين في الشركة.

وبدأت "مليكة" في أداء دورها كزوجة.....

---

[1] التوبة: ٥١.

تبدأ نهارها بترتيب المنزل، ثم تتوجه إلى التسوق لشراء متطلبات البيت. وتعود إلى بيتها لتعد الطعام لزوجها وحبيبها خالد.

شباك المطبخ يقابل شباك ذلك الجار مباشرة فتفاجأت به يلقي عليها السلام من نافذة مطبخه، فارتبكت.

هي مترددة في الحديث معه، ولكنها اضطرت إلى رد السلام ثم توارت بسرعة، لتسحب الستائر، حتى تتجنب الحديث معه.

اضطرت بعد مدة لفتح الستائر، لتهوية المطبخ، فوجدته أمامها مباشرة في وجهها يطل من النافذة، فارتجفت بشدة ووقع الطبق من يدها على الأرض. فكأنه لم يتحرك من مكانه منذ أن ردت عليه السلام منذ ثلاث ساعات.

أراد خالد أن يفاجئها، فدخل البيت على أطراف أصابعه، وفاجأها في المطبخ وهي تلملم أجزاء الطبق المكسور... فصرخت من المفاجأة.

ولأنها لم تكن تريد أن يرى خالد هذا الشاب واقفًا أمامها هكذا، أغمى عليها فهي لم تحتمل أن تفاجأ مرة تلو الأخرى.

فحملها خالد إلى الأريكة محاولا إفاقتها

وبالفعل، قد استعادت وعيها.....

استغربت "مليكة " أن "خالد" لم يوجه لها أي عتاب عن جارها، وكان قد حذرها من التعامل معه ونهرها بشدة، إلا أنها حاولت أن تتخطى الأمر برمته، وبالفعل تعاملت معه بصورة طبيعية.

لم يشعرها خالد بشيء، إلا أن نظراته كانت تحمل معاني أخرى.....

مر يومان وثلاثة وكانت الحياة طبيعية بين الزوجين، إلا أن "مليكة" لاحظت اختفاء الجار.....

الشباك دائمًا مفتوح، البيت دائمًا مظلم، لا تسمع فيه أي حراك.

تجاهلت "مليكة" الأمر في البداية، إلا أن الفضول كان يخالجها، فتساءلت: "ترى أين اختفى هذا الرجل؟

ولماذا اختفى بعد أن رأيته مباشرة؟

ولماذا أبدى خالد عدم اهتمامه بالأمر؟

كان هناك باب للمطبخ يصل بممر ضيق صغير لباب مطبخ الشقة المقابلة، فقررت "مليكة " المغامرة، وفتحت باب مطبخها بحذر وبهدوء.

وسارت خطوات تحذوها المغامرة والخوف.

وضعت يدها ببطءٍ شديدٍ على مقبض باب مطبخ الجار. تفاجأت أن الباب مفتوح.

اضطربت وعادت مسرعة إلى شقتها، ضجيج في نبضات قلبها يهزها هزًّا، وأغلقت بابها والخوف يملأها.

بدأت تظن أن خالدًا قد أذاه.....

هل فعلها خالد؟ هل أذاه؟ لا..... لا أصدق.

لماذا راودها الشك في خالد؟ ما الذي دفعها إلى ذلك الظن؟

ربما لأنه أبدى عدم راحته له، ولاختفائه السريع بهذا الشكل.

قررت "مليكة" تكرار المحاولة

في اليوم التالي، خطت نفس الخطوات السابقة. وبدأت بفتح الباب. ودخلت مطبخ المهندس محمد تتسلل، تحاول الوصول إلى أي دليل.

خالجتها نفسها بالكثير من الأسئلة: "لماذا قادني الفضول إلى هذا التسلل إلى بيت غريب؟ وإلى أين يقودوني؟

كان التيار الكهربائي مقطوعًا كليًّا عن الشقة، حاولتِ التحسس في أدراج المطبخ للعثور على شمع لينير لها المكان، فلم تجد سوى ولاعة صغيرة، بالفعل استخدمتها، فأنارت المكان قليلًا، حتى وصلت إلى مفتاح الكهرباء العمومي للشقة، فرفعته فأضاءت الشقة.

تفاجأت أن الشقة غير مرتبة تمامًا، وأن كل شيء فيها ليس بمكانه، وكأنّ هناك شجارًا كبيرًا قد حدث قبل اختفائه.

في أثناء تجولها في البيت انقطع التيار الكهربي.. ملأها الرعب، ولم تكن تعرف كيف تتصرف، فضَّلت أن تركض مسرعة إلى باب المطبخ لتخرج من حيث أتت، فتعثرت قدمها فسقطت على الأرض، بينما بدأت تسمع أصوات أقدام تطقطق على الأرض فحبست أنفاسها، وهي خائفة، فالظلام يملأ المكان.....

ثم اختفت تلك الأصوات، وعاد التيار الكهربائي.....

فنهضت "مليكة" وجرت بسرعة نحو باب المطبخ لكي تخرج من هذا المكان.

وضعت يدها على مقبض الباب لتفتحه، فوجدت خالدًا أمامها مباشرة، واقفًا ناظرًا إليها نظرة غاضبة، تحفها كل معاني الاستغراب والدهشة.

خالد: ماذا تفعلين هنا؟ ما الذي جاء بكِ إلى ذلك المكان.

لم تسطع أن ترد عليه، اكتفت فقط بالنظر إليه، نظرة يملأها الخوف والكثير من التساؤلات، التي لا تعرف لها إجابة.

ثم انصرفت وهي تركض إلى بيتها حتى دخلت شقتها، ثم أسرعت إلى غرفة نومها، وأغلقت على نفسها الباب.

دخل خالد شقته وأغلق الباب وتركها لتهدأ.....

وقف خالد في شرفة البيت، بعد أن صنع لنفسه فنجال قهوة. سأل نفسه عده أسئلة لا يجد لها أي إجابات: "ترى ماذا كانت تفعل هناك؟ هل كان ذلك الرجل هناك في أثناء وجودها؟".

وضع يده على رأسه، فقد تعب من كثرة التفكير.

ذهب إلى غرفته، دق باب الغرفة ففتحت له "مليكة" بعد مدة.

كل منهما يحمل للآخر العديد من الأسئلة، العديد من الاتهامات، إلا أن الزوجين التزما الصمت، لا يعرفان كيف؟

اكتفى كل واحد منهما بنظرة ثاقبة للآخر تحمل تلك النظرات الكثير والكثير مما لا يقوى اللسان على التفوه به.

تحولت الحياة الزوجية الهانئة إلى صمتٍ ساد المكان يومًا بعد يوم، إلا أن الحياة تفرض وجودها شئنا أم أبينا.

بدأت "مليكة" في مواصلة الحياة اليومية كسابق عهدها، محاولة أن تتناسى ما حدث.

حدثت نفسها قائلة: ما هذا الجدار الذي حال بيني وبين أقرب الناس لي؟ لم أتوقع يومًا أن نصل لهذا الصمت والشك، لا أعرف ما يجب عليّ فعله، هل أواجهه بكل مخاوفي؟ أم أنتظر؟

قررت "مليكة" أن تدع الحياة تسير بها، فلم يكن لديها الخيارات...

بينما كانت متوجهة للتبضع للبيت قابلت جارتها "ياسمين".

ياسمين شابة مصرية رائعة في كل شيء فهي إنسانة خلوقة ترتدي الحجاب، تواظب على الصلاة، مرحة الطباع، تحب جيرانها، مجاملة لهم في كل المناسبات. هي من طرقت باب "مليكة " لتبارك لها في أول أيامها في القاهرة. تعيش مع أمها وأبيها في الشقة التي تعلو شقة "مليكة" مباشرة، تعمل طبيبة في مستشفى حكومي، فهي حديثة التخرج.

عندما قابلت "مليكة" رحبت بها قائلة:

- أهلا بكِ في القاهرة، أذاهبة للتبضع؟! أنا اليوم في أجازة؛ فلنذهب معًا إن لم تمانعي!

"مليكة ": أمانع! أنا في حاجة ماسة لصحبة، جئتِ في الوقت المناسب، وكأن الله أرسلكِ إلي.

صمتت "مليكة" وكان يعلو وجهها الشحوب والأرق من قلة النوم، فضمتها "ياسمين "ضمة خفيفة لتؤازرها، وطبطبت على كتفيها.

"ياسمين ": ما بكِ؟ لا تشبهين أول مرة قابلتك فيها. أترغبين في الحديث؟

"مليكة ": لا أريد، أريدك أن تظلي بجانبي هذه الأيام، أتمانعين؟!

"ياسمين ": أنا بجانبك، لا تقلقي أبدًا، ولا تشغلي بالك بالحديث، عندما تريدين.. كلي آذان مصغية.

فتبسمت "مليكة " وشعرت براحة كبيرة، فقد وجدت أخيرًا الصاحبة.

عادا معًا إلى البيت، وقد دعت "مليكة" صديقتها "ياسمين " ليشربا فنجانين من القهوة معًا.

لم تلح "ياسمين "على "مليكة " للتحدث، بل اكتفت بالسماع لها ولكل شيء تقوله، فهكذا تكون الصداقة النقية التي تخلو من أي مقابل.

فالصاحب الحق هو المستمع الجيد، الذي يتقن فن الإنصات دون مقاطعة، ويخلق الأعذار لصاحبه طالما موقنًا من حسن نواياه، ويعيد الأمل والتفاؤل المفقود لصاحبه.

وبالفعل كانت "ياسمين " متقنة لفن الصداقة، لذا كانت هي الملاذ الأوحد ل "مليكة"، وقد توطدت علاقتهما بسرعة، وأصبحتا أكثر من شقيقتين.

*****

في ليلة دافئة جميلة...

اقترب "خالد" من زوجته الحبيبة وهو ينوي كسر الجدار المشئوم الذي علا وحال بينهما.

"خالد": تعرفين أني أحبك، وليس أي حب، تعرفين أنك كل ما أملك، أنتِ عائلتي، وزوجتي ومعشوقتي، أنت القيثارة التي أعزفها.

فدمعتْ عيناها وارتمت بأحضانه، تشبثت به كالطفلة التي تعلقت بأبيها محدقة بعينيه يخبئ لسانها الكثير والكثير من الأسئلة، إلا أن المشاعر والأحاسيس الناعمة التي أبداها "خالد" طغت على كل مخاوفها حتى إنها تناست كل الهواجس والظنون التي كانت تملأها، بل بالفعل غفلت عنها تمامًا.

عندما تقابلت مع "ياسمين " في اليوم التالي، كانت هناك "مليكة " أخرى... تلك المليئة بالحيوية والمفعمة بالحب، لامعة العينين.

فرحت "ياسمين " عندما رأت صديقتها بهذه الصورة الجميلة، وكأنها لوحة فنية رائعة.

توطدت علاقتهما يومًا تلو الآخر... حتى إنهما يتبادلان الطعام؛ "مليكة" تهديها الطعام المغربي، و"ياسمين " تبدلها الأطباق المصرية الرائعة.

لاحظت "ياسمين " أن "مليكة" تتناول عقارًا غريبًا فسألتها:

- ما هذا يا "مليكة"؟

فأجابتها أنه شيء مهم لها لا بد أن تتناوله كل ليلة وقد أوصتها أمها بذلك.

فتساءلت "ياسمين": هل هو دواء لشيء ما تعانين منه؟!

"مليكة": لا... القصة طويلة... تحتاج إلى فنجال من القهوة، وقطعتين من الكعك المحلي، ولولا أنك أصبحتِ أقرب لي من أيّ إنسان ما أخبرتك، ولتعلمي أن "خالد" لا يعرف شيئًا عما سأخبركِ به.

وبالفعل أخبرت "مليكة" صديقتها الحميمة أسرارها.....

كانت "ياسمين " لا تؤمن بالدجل والشعوذة، وكانت موقنة تمام اليقين برد كل شيء لقدرة الله وحده، ومع ذلك

استمعت ل"مليكة" بإنصات شديد، وقررت أن تأخذ عينة من ذلك الدواء، دون أن تشعر صاحبتها.

دخلت "مليكة " لترد على الهاتف المحمول فأسرعت "ياسمين " وبخفة يد لتأخذ عينة من ذلك الدواء، نجحت في أخذ حبتين من الدواء، وقررت في ذات نفسها، أن تقوم بتحليله، لتعرف مدى تأثيره الكيميائي.

*****

في صباح اليوم التالي.....

ذهبت "ياسمين " إلى المستشفى الذي تعمل به، وأعطت الحبتين لطبيب التحاليل لمعرفة مدى تأثيره على "مليكة".

وفي نهاية اليوم قام طبيب التحاليل بإخبار "ياسمين" عن النتيجة.....

الطبيب: هذا الدواء تركيبة خاصة من المخدر الذي يجعل من يتعاطاه طبيعيًّا جدًّا في تصرفاته، إلا أنه قد يصيبه ببعض الخيالات والهلوسة.

عندما سمعت "ياسمين" هذا الكلام لاذت بالصمت، وشكرت الطبيب وانصرفت عائدة إلى البيت.

جلست "ياسمين" وحدها في غرفتها طوال الليل تفكر.....

ما الذي يدفع تلك العرافة لإعطاء أم "مليكة" هذا النوع من المخدر؟

وهل تعلم الأم بذلك؟

وكيف يمكنها أن تعين "مليكة" على التخلص من تأثير ذلك العقار؟

قررت "ياسمين" أن لا تخبر صديقتها بحقيقة هذا العقار في الوقت الحالي، وأن تحاول معاونتها في حياتها على قدر المستطاع.

لاحظ خالد انشغال "مليكة" بصديقتها "ياسمين"، لم يمانع أو يبدي اعتراضه على هذه الصداقة، بل على العكس تمامًا قام بتحفيزها على توطيد تلك العلاقة.

تتوالى الأيام وتزداد العلاقة بين "ياسمين" و"مليكة"...

طلبت "مليكة" من "ياسمين" أن يتنزها في مكان يشتمان فيه معا عبق الحضارة المصرية القديمة.

وبالتالي قررت "ياسمين" التوجه في رحلة إلى الأهرامات، وقد اتفقتا معا للذهاب عصر اليوم التالي.

استعد كلّ من "مليكة " و"ياسمين " لهذه الرحلة؛ فقد أعدَّتا الكعك المحلي اللذيذ، والشاي وبعض شرائح البيتزا الشهية... وذهبتا معا في سيارة "ياسمين".

وصلتا الأهرامات قبيل العصر. لم تكن "مليكة" تتوقع انبهارها الشديد بهذه الأهرامات وبكم الجمال التي تحمله!

بالفعل أي إنسان يزور الأهرامات لأول مرة، يشعر بشيء هو أشبه بالانبهار والذهول، والوقوف دون حراك أمام هذا البنيان العظيم.

لم تشعر "مليكة" بالوقت وهي تتجول حول الأهرامات. منبهرة، حاملة العديد من الأسئلة حول كيفية بناء هذا البنيان، وأسراره التي ما زالت تُكتشف حتى يومنا هذا، فسارت خلف بعض الأفواج السياحية لتستمع إلى بعض المعلومات.

بينما تعبت "ياسمين" من السير فقررت انتظارها في مكانٍ قريبٍ، حتى تنتهي "مليكة" من جولتها.

بينما تسير "مليكة" متيمة بجمال المشهد، إذ فجأة ترى المهندس "محمد" جارها يسير مع أحد تلك الأفواج.

في زحام تلك المجموعات حاولت التسلل، تريد أن تتحدث إليه...

"مليكة": مهندس محمد! مهندس محمد!

التفت إليها مبتسمًا ولوّح لها بيده من بعيد وواصل سيره مع تلك المجموعة المتجهة إلى الحافلة للعودة.....

وقفت "مليكة" وقد ملأ وجهها الاستغراب والدهشة، تساءلت: "إنه هو، لماذا لوح لي وانصرف بسرعة هكذا؟ وأين كان كل تلك الأيام؟ ولماذا تعمد السير بسرعة مكتفيا بالتلويح فقط؟ هل كان هو بالفعل؟ لا، أعتقد أن هذا الرجل شبيه له.

انصرفت مليكة للبحث عن "ياسمين".....

إلا أنها فجأة وجدت أنها ابتعدت كثيرًا، وقد عم الظلام وهي تخافه بشدة؛ لم تستطع التحرك للبحث عن صديقتها.

قلقت "ياسمين" عليها... وبحثت عنها في كل مكان... ولكن لم تستطع العثور عليها، فقررت الاتصال ب "خالد".

وصل "خالد" بأقصى سرعة بعد ساعة واتجه مباشرة إلى شرطة السياحة في الهرم.

واحتشد الجميع للبحث عنها.....

كان الجميع يحملون في أيديهم الكشافات لتنير الطريق، فقد كان الظلام دامسًا، إلا أن خالدًا قرر أن يبحث بنفسه.

كان القلق والتوتر يملأ قلبه خوفًا على زوجته الحبيبة، وينادي بصوتٍ عالٍ يحفه التوتر، خياله شرد لكل شيء سيئ.

"مليكة" أين أنت؟

أين أنت...؟

يجري "خالد" بلهفة شديدة حتى تعثرت قدماه، فوقع على الأرض، لم تنتبه الشرطة إليه فقد كانت مشغولة في البحث عن "مليكة".

اتصلت "ياسمين " بوالديها لتخبرهما بما حدث، طلبا منها العودة إلى البيت فقد كانا شديدي القلق عليها.

"ياسمين ": كيف أفعل ذلك؟ لا أستطيع! لا تخافا أنا بخير أقف مع الشرطة لاستجوابي عنها.

كانت "ياسمين" تتحدث إلى الشرطة لتساعدهما في العثور على "مليكة".

بدأ "خالد" يفتح عينيه بينما كان مستلقيًا على الأرض لينظر إلى أرجل امرأة واقفة بجانبه، ثم يتابع تلك النظرات ليصل إلى الوجه.....

إذ بزوجته "مليكة" واقفة تنظر إليه.....

لم تكن "مليكة "منتبهة وكأنها شاردة، نظرت إليه وتركته.. وتابعت سيرها، وكأنها لا تعرفه.

حاول "خالد" الوقوف على قدميه، والسير مسرعًا وراء " مليكة "، ثم شدها من يدها بقوة قائلًا:

- أين كنتِ؟ ولماذا أنتِ شاردة الذهن هكذا؟

نظرت إليه والدمع ينزل من عينيها:

- لا أتذكر... صدقني لا أتذكر... سوى أنك هززت كتفي كأنني كنت في حلم واستيقظت.

لم يقتنع خالد بهذا الكلام إلا أنه حاول أن يلملم أعصابه أمام الشرطة، جاهدًا في إنهاء تلك المشكلة بشكل آمن.

أقنع الشرطة أنه قد وجدها مغشيا عليها فقام بإفاقتها، وبالفعل قد أغلق التحقيق بناء على كلام "خالد".

طلب "خالد " من "ياسمين " أن تعود إلى البيت، وذلك بعد أن شكرها، وأخذ "مليكة" لتهدئتها في مكان هادئ.

ذهبا إلى أحد المقاهي الهادئة على النيل.....

جلسا صامتين... كل منهما يحدق بعين الآخر.

سأل "خالد" مليكة:

- ماذا بكِ؟ احكي لي كل شيء، لن أتفوه بكلمة واحدة قبل أن تخبريني ماذا يحدث لك؟ ولماذا يتكرر اختفاؤك وظهورك عند الظلام هكذا، لا تكذبي في شيء.

صمتت "مليكة" عن الكلام في أول الأمر، ثم بدأت تقص لزوجها ما تتذكره من حياتها في طفولتها حتى وصولها إلى القاهرة، لكنها لم تخبره عن أمر الحبوب التي أعطتها لها العرافة.

تعاطف "خالد "معها وشدَّ من أزرها بعد أن ضمها إلى صدره متلمسًا كتفها بلمسة حانية،

خالد: "لا تخافي يا حبيبتي. لن أتخلى عنكِ، فأنا سندكِ الذي تتكئين عليه وقت الشدة، إن لم أكن لك العون، فمن يكون سواي؟

الزواج يا "مليكة ".....

هو أن أحبكِ وأنتِ مرهقة بنفس اللهفة والشعور وأنتِ متجملة.

أن أتحمل مشكلاتك ومعاناتك كأنها معاناتي أنا.

أن أفهم نظراتك إليّ دون أن تتكلمي.

أن أعطيكِ التقدير الكافي الذي تستحقينه.

أن يطيب لي أي طعام تطهينه.

أن أشكركِ على مجهودكِ في المنزل طوال اليوم بكلمة طيبة في الليل تداوي ذلك التعب.

أن لا أنتظركِ لتقومي بخدمتي وأنا مكتوف الأيدي، جالسًا على الأريكة أشاهد التلفاز، أو حاملًا الهاتف المحمول، بحجة أنني مَن أجلب المال وأنتِ عليكِ الخدمة".

أنهى "خالد "حواره مع "مليكة" وركبا السيارة متجهين إلى المنزل.

كانت "مليكة" تنظر إلى "خالد" طول الطريق وهما داخل السيارة، نظرة إعجاب يحفها الشوق.....

لاحظ "خالد" تلك النظرة الحانية، المليئة بالحب، فضمها إلى صدره بيد، بينما كان يقود السيارة باليد الأخرى، فمالت برأسها على كتفه، مستكينة له، مستسلمة، وكأنها نفضت عن صدرها همًّا كبيرًا قد أزيح عن عاتقها، كالطفل الصغير حين يتعب من السير، فيسأل أباه أن يحمله، فيتكئ على كتفه دون أدنى اهتمام بالأرض وما عليها.

فكانت تلك اللحظة هي البداية الحقيقية في حياة الزوجين العاشقين. إلا أنه قد تبقت بعض الأسئلة، التي ما زالت بلا أجوبة.....

لماذا اختفى المهندس "محمد" فجأة؟

ولماذا ظهر وتعمد الفرار منها، عندما شاهدته صدفة؟

ما هو ذلك الشيء المخيف الذي ظهر إلى "خالد" فجأة ففزعه عندما كان في المغرب؟

لماذا أخفت "مليكة" عن "خالد" أمر الدواء الذي أعطته لها العرافة؟

في صباح اليوم التالي.....

طرقت "ياسمين " باب شقة "مليكة" للاطمئنان عليها.

فتحت "مليكة "الباب ورحبت بصديقتها، وشكرتها عما فعلته من أجلها. واعتذرت لها عما حدث.

بينما كانت "مليكة" تعد القهوة في المطبخ لاحظت حركة غير عادية في شقة المهندس "محمد"، فلم تبدِ أي اهتمام.....

حدثت نفسها قائلة: لعله جاء من سفره، أو أرسل أحدهم لتنظيف الشقة، فقد كان كل شيء فيها في حالة من الفوضى العارمة....

"مليكة": أخاف أن أطلب منكِ الخروج معًا، بعد كل ما حدث.

"ياسمين": لستُ من تظنين، فأنا عند ثقتك. ولو أردت الخروج كل يوم لفعلت.

تبسمت "مليكة" واطمأنت لصديقتها، وقررت أن تُفضي لها عن أمر المهندس "محمد" جارها لتتشاور معها.

بينما كانت "مليكة" تحكي عن أمر ذلك الرجل، كانت "ياسمين" تنصت باهتمام شديد.

"ياسمين": "أنا لا أعرف عنه الكثير، إلا أنه يتودد للجميع، مجاملًا لهم في أغلب الأوقات، هو يسكن وحده، أعتقد أنه غير متزوج، ولكن ما الذي جعلكِ تدخلين بيته؟ وكيف وجدت باب شقته مفتوحًا؟ لا تقدمي على ذلك الفعل مرة أخرى، فأنا لست مطمئنة لما فعلتِه".

تأخر "خالد" في عمله طول اليوم، وعندما حضر إلى المنزل في المساء، ووضع مفتاحه في الباب، تفاجأ أن باب الشقة مفتوح....

ففزع "خالد" ودفع الباب بسرعة محاولًا الوصول إلى "مليكة "؛ ظانًّا منه أنّ مكروهًا قد حدث لها... فتش في كل مكان في الشقة، لم يجدها.

بينما كان في المطبخ لمح خيالًا في شقة جاره "محمد" ففتح باب المطبخ وجرى بسرعة عبر الممر الواصل بين الشقتين، وحاول فتح باب مطبخ شقة "محمد" ولكنه كان موصدًا هذه المرة.

لم يهدأ "خالد"، بل ازداد توترًا وعنفًا وبدأ في كسر باب المطبخ بعصا من الخشب وجدها ملقاة على الأرض.

وبالفعل فتح باب مطبخ المهندس "محمد"، وحاول التسلل ببطء شديد، فتش في جميع أرجاء الشقة، لم يجد أحدًا، فحاول الدخول إلى غرفة النوم الرئيسية، محاولًا فتح باب الغرفة بحذر.

انقطع التيار الكهربائي فجأة، فتعثر "خالد" وهو يحاول التخفي عندما سمع صوت أقدام تقترب منه....

وإذ بضربة فوق رأس "خالد" تغيبه عن الوعي، وبعد مرور الوقت لا نعرف إن كان ساعة أو أكثر، وجد "خالد" نفسه مقيدًا بحبل، وسمع صوت أحدهم في المطبخ، حاول فك الوثاق بكل عزم وقوة، ولكن باءت محاولته بالفشل، إلى أن خرج رجل من المطبخ.....

إنه المهندس "محمد" يمسك بيده كوبًا من الشاي... ينظر إلى "خالد" نظرة تملأها العديد والعديد من الأسئلة.

محمد: "ما الذي أتى بك إلى هنا؟ لماذا اقتحمت الشقة بهذه الصورة الهمجية؟ لماذا لم تطرق الباب الرئيسي وتطلب الدخول؟ لم أكن لأمنعك من الدخول، بل على العكس تمامًا، لكنت استقبلتك أفضل استقبال، ورحبت بزيارتك".

تلعثم لسان "خالد" ولم يكن لديه أي إجابة، فحاول أن يصطنع أي كلام...

"خالد": لقد لمحت أحدهم يحاول اقتحام شقتك وسرقتها.

نظر "محمد" نظرة يحفها الاستغراب والسخرية معًا، وتنهد قليلًا وهو يحيط ب "خالد" محاولًا فك الوثاق ببطء متعمد.

- لا أصدق هذا الكلام العابث، ولكنني سأحاول إقناع نفسي.

بعد انتهاء "محمد" من فك وثاق "خالد" حاول أن يساعده في النهوض، وطلب منه الاسترخاء على الأريكة التي كانت تضج بالملابس المبعثرة.

"خالد": أنا آسف، لم أقصد فعل هذا، ولكنني كنتُ.....

فقاطعه "محمد" قائلًا:

- لا تكذب، لا أريد أن أعرف السبب، ولكنني سأعد وجودك هنا اليوم بداية جديدة للتعارف معًا، تشرفت بك... ما رأيك بكوب من الشاي وجلسة مريحة هناك قرب النافذة؟

"خالد": أكيد، ولكني سأفعل شيئًا مهمًّا، ثم أعود لك على الفور.

ثم اتجه مسرعًا إلى الشقة ليبحث عن "مليكة".....

ما إن دخل خالد من باب شقته حتى لمح "مليكة" في المطبخ، فجرى نحوها، وقبض على كتفها بعنف:

- أين كنتِ؟ ولماذا تركت باب الشقة مفتوحًا؟

"مليكة ": لماذا تصرخ في وجهي هكذا؟ كنت عند جارتي "ياسمين"، وسهوت عن غلق الباب، أهذا ما يزعجك؟

ثم تركته واقفًا في المطبخ، واتجهت إلى غرفتها، وبكت.

وقف "خالد " في الشرفة يتنفس قليلًا من الهواء، ثم بدأ يسترجع قواه، فقرر أن يعتذر لحبيبته، فذهب إلى "مليكة"، فوجدها جالسة على الأريكة، فجلس على الأرض بجوارها ووضع يده على ركبتيها، يلتمس منها أن تسامحه:

- حبيبتي.. أقصد أيتها القيثارة.. أخاف عليكِ.. وهل هناك أحد يخاف عليكِ أكثر مني؛ فأنتِ الهواء الذي أتنفسه.. وأنتِ الروح التي أحياها.. فهل تسامحينني يا أميرتي؟

فضحكت "مليكة"، ثم وضعت يديها على كتفه، وأطالت النظر إليه قائلة:

- لا أريدك أن تصرخ في وجهي هكذا مرة أخرى، فأنت حبيبي، وأبي، وسندي، وكل ما أملك في هذا البلد.. أنت حبي الأول والأخير.

فقبلها "خالد" قبلة دافئة على جبينها، تشبه قبلة الأب لابنته الغالية، واستأذنها أن يتركها قليلًا، لكي يذهب إلى جاره المهندس "محمد".

بدا على "مليكة" كل ملامح الاستغراب:

- ألم تحذرني من التعامل معه، لأنك لا ترتاح له على الإطلاق؟!

"خالد": سأشرح لكِ كل شيء بالتفصيل، ولكن بعد أن أعود.

ذهب "خالد" إلى جاره ليعتذر عما بدر منه.

طرق باب شقته، فتح "محمد" الباب لجاره وطلب منه الدخول، ورحب به وسأله إن كان يريد الشاي أم القهوة.

بدأ "خالد" بترتيب كلماته محاولًا إبداء كل أساليب الاعتذار، فقاطعه المهندس "محمد" قائلًا:

- "لا أريد أن أسمع أي مبررات، أنت هنا لتسمعني.....

أنت الوحيد في هذه العمارة، التي كنت تتجنبني دائمًا، حاولتُ التقرب إليك ودعوتك على عيد ميلاد ابنتي أكثر من مرة، ولكنك لم تنتبه".

فملأ وجه "خالد" الاستغراب؛ أين هي تلك الابنة وأين زوجته، فهو لم يرَ أحدًا معه من قبل.

لم يحاول "خالد" أن يقاطعه في كلامه وتركه يواصل حديثه.

"محمد": على وجهك الدهشة، أراها بوضوح، فأنت لا ترى معي أحدًا، حتى الشقة التي أسكنها تملأها الفوضى العارمة، ولكنك معذور، فلم تكن على صلة بأحد من قبل، لم تسمع خبر وفاة زوجتي وابنتي.

دمعت عينا "خالد" تمامًا كما دمعت عينا "محمد".

"محمد": "لعلك تتساءل لماذا أترك شقتي دائمًا هكذا في فوضى دون ترتيب، سأجيبك.....

لا أريد أن أراها مرتبة، فلا معنى للترتيب دونهما، ولا معنى للحياة أيضًا، رأيت في عينيك غيرة شديدة عندما كنت أقف في شباك المطبخ، بينما كانت زوجتك هناك في مطبخكم، لم أكن أنظر أو أتلصص عليكما، ولكنني كنت أحاول أن أتذكر حياتي السابقة، فقد كانت تشبه حياتكما".

تنهد "محمد" وسكت عن الكلام، ثم اتجه إلى الشرفة ناظرًا إلى السماء متوسلًا من الله أن يصبره على هذا البلاء.

طبطب "خالد" على كتف "محمد" بهدوء، وهو صامت لا يقوى على الكلام، ثم تركه واتجه إلى باب الشقة للخروج.

انتهى الغموض القائم في عقل "خالد" الذي كان يشوبه دائمًا حول هذا الجار، خاصة بعد أن تحدث إليه، وندم على تسرعه في الحكم عليه، وعلى شخصيته دون أن يعرفه.

واصل "خالد" حياته بصورة طبيعية، مع زوجته ومعشوقته "مليكة" وقرر أن يعزم جاره المهندس "محمد " على العشاء يوم الجمعة، فاتصل به، ووافق المهندس "محمد" على المجيء.

طلب "خالد " من زوجته أن تتأهب لزيارة جاره، وذلك بعد أن قص عليها كل ما سمعه من "محمد".

اتصلت "مليكة" بصاحبتها "ياسمين" لتسألها عن بعض الأكلات المصرية.

فضحكت ياسمين قائلة:

- لن تستطيعي القيام بذلك بمفردك، سآتي لمساعدتك أيتها الجارة الجميلة.

وبالفعل قامت "ياسمين " بذلك وكانت معها طوال اليوم في المطبخ. حتى انتهيا من الطهي، وهما يتبادلان الحديث.

جاء وقت العشاء.....

حضر الضيف، وأصرت "مليكة" على حضور "ياسمين " على العشاء.

تجمع كل من "خالد" و"مليكة" مع الضيفين "محمد" و"ياسمين"، على الرغم من أنهما يسكنان العقار نفسه، إلا أنهما كانا يلتقيان للمرة الأولى.

كانت "ياسمين" تنظر إلى "محمد" بحذرٍ شديدٍ.

كان محمد صامتًا في أول اللقاء، قليل الكلام، لا يبدي أي اهتمام.

ياسمين: أستعد الآن مع زميلاتي وزملائي في المشفى، للعمل ضمن الحملة القومية للكشف عن الأمراض المزمنة، الكثير من الناس متكاسلون عن المشاركة لذا علينا جميعًا أن نقوم بالتوعية للحث على فاعلية هذه الحملة، ها... فلنبدأ بالحاضرين... من سيأتي معي غدًا لعمل التحليل؟

"خالد ": سأكون الأول... أنا ومليكة.

"محمد": لا بأس، على الرغم من أنني لست مهتمًّا..... ولكنني سأذهب معكم.

اتفق الجميع على الاستيقاظ باكرًا، وبعد مرور وقت لطيف رحل كل فرد إلى عالمه ليتعايش فيه.

هكذا دائمًا حال دنيانا، نلتقي ونتسامر، ونلهو ونمرح....

ثم يأتي السكون، كل يعود إلى ثكناته، إلى عالمه الخاص الذي يحياه بطريقته، نعم طريقته الخاصة... شعواء كانت أم هادئة.

نام الجميع في سباتٍ عميق، نسيت "مليكة" أنها قد تناولت الحبوب، وأخذت منها للمرة الثانية في نفس الليلة.

بينما يعم الهدوء والسكون، مرت ساعات بعد منتصف الليل، واقترب الوقت من الفجر.....

تجد "مليكة" نفسها تخرج من باب شقتها بهدوء وتصعد سلالم المبنى السكني حتى وصلت إلى أعلى المبنى السكني فوق السطح وظلت هناك واقفة قبيل السور تنظر كأنها تحدق في شقة معينة في المبنى السكني المقابل، لم تكن تنظر فعليًّا، فقد كانت شاردة الذهن طوال الوقت.

هناك في المبنى المقابل.....

في الدور الثالث العلوي، يعم الظلام على ذلك المكان، كان هناك رجل أسمر اللون، ذو شعر كثيف، طويل القامة يهاجم امرأة من خلفها بوشاح يحاول خنقها به.

امرأة عشرينية تلوح بصعوبة بيدها ل "مليكة" التي تقف صامتة متفرجة غير قادرة على الحركة.

تلك المرأة العشرينية تعافر وتسقط على الأرض، مرارًا وتكرارًا، لا تقوى على الحركة؛ فقد انقض عليها المجرم ليحكم شد الوشاح على رقبتها، ليتأكد من مفارقتها الحياة، والمرأة ما زالت تلوح بكف يدها الرقيق إلى "مليكة" فهي تظن أنها تراها وتسمعها، ولكن الحقيقة غير ذلك....

كانت "مليكة" تحدق بعينيها في المكان، ولكن دون أن تراه فهي في ملكوت آخر.

بعد أن أنهى ذلك المجرم فعلته الدنيئة، تلفت هنا وهناك ليتأكد أنه لم يترك أثرًا لجريمته، وفي أثناء ذلك لاحظ "مليكة" وهي واقفة تحدق في المكان، فحاول أن يتخفى وراء الستار، ينتظر ما ستفعله.....

هل ستصرخ؟ هل ستطلب النجدة من أحدهم؟

لاحظ أنها لا تتحرك ثم حاول أن ينظر من النافذة، ليتعرف على ملامحها، وبالفعل علقت صورتها في ذهنه، ثم فر هاربًا، أما "مليكة" فقد ظلت هكذا على وضعها حتى نسج الفجر خيوط الشفق الأبيض.

نبض النهار نبضة الإحياء، حينئذ انتبهت "مليكة" وحدثت نفسها قائلةً: "لمَ أقف هكذا؟ عليّ الإسراع بالنزول من هذا المكان قبل أن يستيقظ "خالد".

لملمت نفسها بسرعة من حالة الشرود تلك، ودخلت بيتها، ولم تبدِ أي شيء ينبه "خالد" كأن شيئًا لم يحدث، فقد سئمت من أفعالها وشرودها، كما سئمت من قلق "خالد" الشديد عليها، فهي ليست على استعداد لتبرير أي فعل....

دخلت إلى فراشها الدافئ بجوار زوجها، واحتضنته تلتمس أمانها فهي كالعصفور الضائع الذي يأوي إلى عشه بعد نضالٍ طويل.

أغمضت عينيها، ونامت في سبات عميق، شاهدت في منامها كأنها تسير في الظلام بين القبور وهي خائفة... يملأها الرعب والهلع، وإذ بفتاة عشرينية تظهر لها من تلك القبور، تمد

إليها يدها تستعطفها لكي تشدها "مليكة" قبل أن يواريها التراب.

ما زالت الفتاة تغوص في التراب، رافعة يدها ل"مليكة" لكي تسحبها...

بينما "مليكة" غير قادرة على الحركة، فقد أمسكت العرافة بقدميها.

تلك العرافة التي تسكن الجبل في المغرب، محكمة قبضتها على قدمي "مليكة" لكي لا تتحرك، وإذ برجل أسمر، ذي شعر كثيف يسحبها من يد العرافة ويحاول خنقها بقسوة وبعنف، وهي تقاوم ولا تستطيع... فتصرخ... وتصرخ ولا يوجد من ينقذها.

فيهزها "خالد " ليوقظها من هذا الكابوس اللعين.

- "مليكة" استيقظي! ما بكِ؟

ويستمر في إفاقتها...

فتصحو من نومها، شاكرة حامدة... فقد كان حلمًا

نعم إنه حلم، هي أيقنت أنه حلم، ولكن لا تعلم أن هناك مشهدًا حقيقيًّا قد حدث أمام عينيها، دون أن تدركه....

ابتعدت بعقلها الباطن عن الحقيقة، واكتفت بكونه حلمًا، وبدأت يومها.... فهي ملتزمة بميعادها هي وزوجها مع "ياسمين"

"خالد": مستعدة؟ سأسبقكِ إلى السيارة، لا تتأخري.

"مليكة": حاضر، سأتصل ب "ياسمين" أولًا، لكي نتحرك معًا، عليك الاتصال بالمهندس "محمد".. لا تنسَ.

كانت "ياسمين" في المصعد عندما استوقفه "محمد" للنزول، فسلم عليها ورحب بها...

سعدت "ياسمين " بحضوره، وشعرت بالخجل لأنهما كانا بمفردهما في المصعد.

أطال "محمد" النظر إلى وجه "ياسمين " وكأنه يراها لأول مرة.

ترى هل تلك كانت الوخزة التي تحدث فجأة للمحبين، أم أنه إعجاب من أحد الطرفين للآخر؟

تحرك الجميع لعمل التحاليل.

استقل كل من خالد ومحمد سيارة واحدة، في حين أن ياسمين ومليكة كانتا معًا في السيارة الأخرى.

"مليكة": أشعر بكِ! ما لك تشردين؟ هل أصابتكِ وخزة؟

"ياسمين": لا... لا... لست كذلك، ربما الفضول يعترينني، أتشوق لمعرفة الكثير عنه.... لا أكثر.

وصل الجميع، وبالفعل قاموا بالتحليل، وتأكدوا من خلوهم من أي من تلك الأمراض المزمنة.

قدمت "ياسمين" لهم الشكر على إيجابيتهم وتفاعلهم مع الحملة، وقبل أن ينصرف المهندس "محمد" أطال النظر إلى ياسمين مرة أخرى مبتسمًا لها، وقد بادلته الابتسامة نفسها.

قام خالد بتوصيل "مليكة" إلى البيت، لاحظا ذلك الهرج والمرج عند أول الشارع.

هناك سيارات الإسعاف والشرطة، وحشد من الناس يلتفون حول تلك الجثة.

سأل خالد أحدهم: ماذا هناك؟ هل حدث شيء؟

فأجابه: وجدوا جثة لفتاة كانت تسكن هناك في ذلك المبنى، يقولون إنها انتحرت ليلة أمس.

"خالد": لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

اهتزت "مليكة" وارتعشت فجأة، فتحت باب السيارة وجرت مسرعة نحو عربة الإسعاف، حاولت أن تتخطى الحشود والعوائق لترى تلك الفتاة القتيلة، وهم يحملونها إلى داخل سيارة الإسعاف، فأبعدت أحدهم، كان يقف عائقًا بينها وبين رؤية الجثة، حاولت أن تكشف الغطاء لتراها، ففزعت صارخة بصوت عالٍ:

- لا... لا يمكن أن تكوني أنتِ! لا... مستحيل.

فاستوقفها رجل الشرطة، يعلو وجهه الاستغراب والدهشة قائلًا:

- هل تعرفينها؟ هل كان لكِ أي صلة بها؟

كان خالد قد أسرع للحاق بها، فأقبض على يديها وشدَّها بقوة، ردَّ بصوت هادئ على رجل الشرطة قائلًا:

- لا... لا نعرفها أيها الضابط، زوجتي مرهفة الحس والمشاعر ونحن نسكن هنا بالجوار، فعندما رأت جارتها بهذا المنظر، لم تتمالك أعصابها.

ثم سألها الابتعاد عن هذا المشهد القاسي، قائلًا:

- لماذا تفعلين هذا؟ تأتين بالشكوك حولنا، ما لنا ومالِ هذه الحادثة؟!

ظلت الدموع تنهمر من عيني "مليكة" بلا توقف، دون أن ينطق لسانها بكلمة واحدة.

صعد الزوجان إلى شقتهما، ووقفت "مليكة" في الشرفة. بدأت تنبس تلك الكلمات:

"أنا أعرفها، ولكن أين؟ لا أعلم... أنا متأكدة...

أعرف ذلك الشاب... الأسمر... لكن.....".

قاطعها خالد في حوارها مع نفسها:

-كيف لكِ أن تعرفيها؟ وأين؟

"مليكة": لا أعرف..... لا أعرف.

وانهارت في البكاء، وجلست على الأرض تستند على الحائط:

-كأني أعرف ما حدث يا خالد، كأني شاهدته، أنا خائفة.

ارتعب خالد من كلام زوجته، فقد أوغلت سهام الشك في صدره.

افترش خالد الأرض جالسًا بجوارها، محتضنًا إياها، ليهدئ من روعها أولًا ثم بدأ يسألها:

- هل رأيتِ شيئًا؟ احكي لي كل شيء..... لا تخفي عني شيئًا.

فأجابته: لماذا لا تصدقني؟! لا أعرفها... لا أعرفها، ولكنني أشعر أني رأيتُ ما حدث، وكأنني شاهدته بكل تفاصيله، ولكن كيف أو متى؟ لا أعرف.

خالد: اهدئي الآن! لا أريدك أن تتفوهي بأي من هذا الحديث مع أي شخص، أرجوكِ لا أريد التورط في هذا الأمر، فهو ليس بالسهل، إنها جريمة قتل.

بات "خالد" يلملم أعصابه وتوتره وشكوكه، التي اختلطت ببعضها فصنعت حربًا شعواء في عقله فجعلته عاجزًا عن التفكير.

هناك في الجانب الآخر.....

كان المهندس "محمد" قد سجل رقم الهاتف المحمول للدكتورة "ياسمين" جارته، فوجد نفسه دون أن يشعر يتصل بها، وهو منهمك في عمله، ثم أغلق الخط بسرعة: لماذا أتصل؟ لماذا أفعل ذلك؟ ولم أفكر بها كثيرًا هكذا؟

وجدت "ياسمين " الرقم مسجلًا على الهاتف، فاحمرَّ وجهها، ودقَّ قلبها بسرعة: تُرى.... لماذا يتصل بي؟

فقررت الاتصال به، وبمجرد أن رَنَّت عليه فتح "محمد" الخط بسرعة، وكأنه في انتظارها....

تعثر كلاهما عن الكلام وسكتت الألسنة.

نطقا في وقت واحد: أهلا.

فضحكا الاثنان معًا لهذا الموقف.

"محمد": آسف، كنت أريد أن أتحدث معكِ قليلًا، هل تمانعين؟

"ياسمين": على الإطلاق! على الرحب والسعة.

"محمد": أنهيتِ عملكِ؟

"ياسمين ": نعم في طريقي إلى البيت، أقود سيارتي.

"محمد": أرتاح في الحديث معكِ، فهل تقبلين صداقتي؟

"ياسمين": نحن جيران، فكيف لا نكون أصدقاء؟

"محمد": "سأعرفك بنفسي أولًا.....

قبل كل شيء.... أنا محمد جارك، أعمل كمهندس معماري، كنتُ متزوجًا، توفيت زوجتي وابنتي في حادث سيارة في الكويت، لم أهتم بعملي هناك، وتركت البلد، وعدتُ إلى هنا في بيتي الذي بدأتُ فيه حياتي أنا وزوجتي وابنتي منذ سنوات، ولكني لم أشاهدكِ من قبل في هذا المبنى".

"ياسمين": كنا نسكن في الهرم ولكننا جئنا إلى مصر الجديدة العام الماضي فقط، فأنا وحيدة ليس لي أخوات، بعد تخرجي من الجامعة، لم يشأ أبي أن أعمل في مستشفى يبعد عن البيت كثيرًا، فجئنا هنا لكي نقترب من مكان عملي، وتعرفتُ على "مليكة" هذه الأيام فكل منا تحتاج إلى صديقة، الاحتياج بيننا متبادل، وتوالت الأيام حتى أصبحت صديقتي المقربة.....

لقد وصلتُ إلى البيت. لنا في الحديث بقية. ولكنني أرى ضجيجًا في الشارع، لا أعرف... ترى ماذا يحدث؟ سأكلمك غدًا.

"محمد": أنتظرُ مكالمتك.

أغلقت "ياسمين " الهاتف، وأطلقت عنان الخيال ليطير في سماء العشق، ويسبح في بحور الهوى، إنها (الوخزة) التي لا تقوى على الفرار منها.

كلما حدثها وسمعت نبرات صوته..... تبسم وجهها وقفز قلبها من مخبئه.

قائلة لنفسها: اهدأ أيها القلب الثائر، كنتَ راكدًا، ساكنًا، لا تعبأ بهذا ولا ذاك، ثم يأتيك ذلك الإحساس الممزوج باللهفة والشوق، تلك (الوخزة) التي تكسر كل القيود، وتحطم كل الأبواب المغلقة لتصل إلى مرادها. مهما كانت صلابتي وصدَّي أقف حائرة لا أقوى على المواجهة، وكأن رغبتي للاستسلام قد رفعت رايتها.

راية النصر... النصر على الوحدة المغلقة، النصر على الصمت، النصر على السكون الدائم، إنها ثورة المشاعر.... أشعلت النيران في الجسد ليحيا بعد الممات، وبدء سماع أصوات دقات القلب كأنها طبولٌ تُقرع.

لم تنتبه "ياسمين" لما يحدث حولها، فعينها كانت زائغة، تائهة في دروب ذلك الحب، الذي أوشكت على الإبحار فيه، سكنت في غرفتها تسمع الأغاني والطرب في كلام العشق والهوى.

على الجانب الآخر.....

لا يزال الخوف والهلع يحومان في شقة مليكة، الصمت يطغى على الحركة، والسكون غلب على الحياة.

لم يكن مشهد "مليكة" وهي تنظر إلى الجثة ليمر هكذا دون أن يلاحظ ضابط الشرطة ذلك. فقد تعمد أن يتجاهل ردود فعلها مؤقتًا، لحين إنهاء التحريات وجمع الأدلة، فقبل أن يغادر الضابط المكان سأل بواب العمارة عن بيانات الزوجين.

في اليوم التالي.....

دق جرس الباب، فتح خالد فوجد مُحضرًا من قسم الشرطة معه استدعاء له هو وزوجته إلى قسم الشرطة للإدلاء بأقوالهما معًا، في الغد، في تمام الساعة العاشرة صباحًا.

اضطرب خالد لهذا الأمر واتصل على الفور بجاره المهندس "محمد" ليشاوره في ذلك.

"محمد": لا تقلق، سآتي معكما، وسوف أتصل بالمحامي للحضور معنا.

"خالد": أشكرك، في انتظارك غدًا.

ذهب كلّ من "مليكة" و"خالد" إلى سرايا النيابة، وجلسا في انتظار مناداتهما على ذلك المقعد أمام حجرة وكيل النيابة.

خرج من تلك الحجرة شاب أسمر، كثيف الشعر، شهقت "مليكة" عند رؤيته وتصلبت كالحجر، وهو أيضًا وقفت نظرة عينيه تحدق فيها حتى إنه سار خطوتين ثم التفت برأسه للخلف، لينظر إليها مرة أخرى، وكأنه يريد أن يتأكد من كونها تلك المرأة التي كانت تنظر إليه من أعلى سطح المبنى.

أشارت بأصبعها إليه وهي ساكنة الحركة.

سمع خالد اسمه هو وزوجته، فنهض مسرعًا، ليتأهب للدخول، وجاء "محمد" في الوقت المناسب مصطحبًا معه المحامي.

دخلا مع المحامي من أجل التحقيق.

"وكيل النيابة ": لن أطيل الكلام، هو سؤال واحد لكما، هل كنتما تعرفان الضحية؟

"خالد": لا لم أشاهدها من قبل.

"مليكة": لا أعرف... أشعر أني أعرفها... ولكني... لم...

فقاطعها وكيل النيابة: ماذا تعنين بلا أعرف..... وأشعر.... ولكني، إجابتك تثير الشك والريبة.

فتدخل المحامي قائلًا: إنها من المغرب، ليست مصرية، ربما تكون غير قادرة على فهم معاني الكلام أو التعبير باللهجة المصرية، لذا أطلب من سيادتكم اعتبار إجابتها بلا.

سألها وكيل النيابة مرة أخرى فأجابت: لا... لا أعرفها.

ولكنها تائهة، حائرة، لا تدري ماذا تفعل.

أتصمت على تلك الحقيقة التي تغصُّها أم تظل تنطق أحس وأشعر...

اكتفى وكيل النيابة بتلك الشهادة، ورحل الجميع من سرايا النيابة.

بين كل تلك الأحداث الأليمة.....

هناك زهرة تنضر وتنمو وسط الرمال الجافة، زهرة الحب الذي لا يعرف المكان أو الزمان.

إنها "ياسمين" التي تعيش حالمة، لا تشعر بما حولها، توالت المكالمات بينها وبين "محمد" حتى استمرت ساعات

طويلة، لم يكن أي منهما يُدرك الوقت، تذوب الساعات كأنها ثوانٍ قليلة، عاطفةٌ جياشة تطغى على حياتهما.

وكأي صديقة وفية، كانت "ياسمين" داعمة ل "مليكة" في ضيقها النفسي؛ تحاول بين حين وآخر لتخفف عنها ما بها محاولةً أن تؤازرها وتؤانسها وتُفرّج عنها ما فيها، إلا أنها كانت مشغولة بكل كيانها ووجدانها ب "محمد" ليلًا ونهارًا.

"محمد": أوحشتِني... يا ياسمينة عمري، عيناكِ تحملُ معاني كثيرة، لا يقوى قلبي على احتمالها، ولا يقوى عقلي على استيعاب كل ما يحدث لي، أشعرُ أني أُبحرُ في سفينة تعلو وتدنو من أمواج بحر لجيّ.

"ياسمين": أُلملمُ مشاعري المبعثرة، ما كل هذا الحب! لم أكن أنوي الغوص في بحرك اللجّي، فلمَ تدفعني بهذه القوة كأني أراك وأحياك منذ سنين، هل يُعقل أن نقترب بهذه السرعة! كنت دائمًا لا أؤمنُ بالشعور الذي يغتال المرء فجأة، ولا أؤمنُ بالسرعة في العشق... فإن ما يأتي سريعًا يفنى سريعًا، ولكني الآن لا أجد مشاعري بين يدي؛ فهي مكبلة بك، وروحي تهيم مع رنات هاتفك... أُطيل النظر بالساعات إلى الهاتف... أرتقبُ كلامًا معك.

"محمد": كلامك الدافئ يشعرني بمسؤوليتي تجاهك، أنا لستُ مراهقًا ولا عابثًا، وأنتِ جارتي... وأنا لن أكون ذلك الرجل العابث، هل تسمحين لي بالتعرف إلى والديكِ؟!

"ياسمين ": الآن تأكدتُ من نظرتك لي... لو لم أسمع منك هذا الكلام، لبدأتُ في الانسحاب شيئًا فشيئًا، سمعتُ من صديقاتي الكثير من العلاقات عبر الإنترنت، والحسابات الشخصية الوهمية، تلك العلاقات التي انتهت معظمها بكسر الخواطر، وخداع أحدهم للآخر، لم أكن أنوي التعمق في تجارب مثل تلك التجارب اليائسة، أغلب الصفحات ما هي إلا صور وهمية، لا تعبر عن أصحابها بالفعل، فأنا أعدها وهمًا لذيذًا.

"محمد": وهم؟! ولذيذ؟!

"ياسمين": "نعم، إنه الوهم الذي نرسمه لأنفسنا، أغلب الناس يرسمون صورًا جذابة وبرَّاقة عن أنفسهم، ويبدعون في هذا الرسم..

أحيانًا يكون كذبًا.....

وأحيانًا أخرى حقيقة، ولكنها مُلونة....

نعم، مُلونة بألوان وأمنيات يتمنى صاحبها أن يعيشها أو يتعايشها بذهنه وكيانه. فهو ينسحبُ من واقعه الممتلئ بالمشكلات والصعاب وأزمات الحياة إلى العالم الذي صنعه لنفسه وبنفسه.

عالمٌ هو المتحكم فيه وحده، يُضيف أناسًا، أو يغلقُ على أناس آخرين لا يستلطفهم وهكذا".

"محمد": "أسمعكِ بشغف.....

كلامك يكبركِ بسنوات، أشعر أني أستمع لأديبة، تكتب كلمات راقية، لديها من الفكر الكثير.

أشعرُ أن الله منحني إياكِ عِوضًا عن أيامي وأحزاني التي عشتها.

أخافُ أن تضيعي مني، فذلك الشعور الذي ينتابني عند الحديث معكِ، أو سماع صوتكِ، أو حتى التفكير فيكِ، لا تُوصف....

أحاسيس جميلة مليئة بالشجن واللهفة والشغف.

في الجانب الآخر نجد القلق يسود شقة "مليكة" و"خالد"؛ فهما يمران بأزمة عسيرة -ليست بالسهلة- وخوف وترقب....

هناك خلف الشجرة الكبيرة، بجوار المبنى، يختبئ ذلك الشاب الأسمر، كثيف الشعر، يراقب "مليكة" من بعيد... وضعها تحت منظار عينيه

تُرى... ماذا يريد؟

إنه خائف من شيء ما... تُرى ما هو؟

فقد رآها في تلك الليلة، واقفة شاخصة أبصارها، وشاهدها أيضًا في سرايا النيابة.

ظلَّ واقفًا مكانه لساعات....

لم تخرج "مليكة" للتسوق في ذلك اليوم فقد كانت تعبة.

أما "خالد" فيخرج إلى عمله منذ السابعة، كان ذلك الشاب ينتظر خروجها بفارغ الصبر.

لم تتحرك "مليكة" من شقتها طوال اليوم....

عندما عاد "خالد" من عمله في المساء أراد أن يفرِّج عنها قليلًا، فدعاها للعشاء في مطعم فاخر، ليسري عنها قليلًا، استعدت "مليكة" وتأنقت بأجمل الثياب للخروج مع زوجها، ونزلا معًا في المصعد، إلا أن "خالد" نسي محفظته، والنقود

فعاد لجلبها من الشقة، وطلب من "مليكة" أن تسبقه إلى الجراج، وتنتظره داخل السيارة.

صعد "خالد" إلى الشقة للبحث عن محفظته، واتجهت "مليكة" إلى الجراج الذي خاليًا من الناس تمامًا؛ فقد انشغل الجميع بمشاهدة مباراة كرة القدم، حتى البواب كان داخل غرفته، يشاهد المباراة.

كان صوت التلفاز عاليًا جدًّا يشوش على أي صوت آخر، وأغلب السكان مندمجون في تلك المباراة المهمة.

صوت الكعب العالي الذي يضرب في الأرض، يدق في أذنيها خطوة بخطوة كأنه نبضات قلبها، تسمع تلك النبضات كأنها طبول تقرع.

تشعرُ بأنفاس تراقبها، تُسرع فتسرع معها، تبطئ فتبطئ معها.

كأن أحدًا يتتبعها، قلبها يموت رعبًا، فهي خائفة، متحفزة من الالتفات وراءها، لترى من هناك.

وقعت حقيبة يدها الصغيرة على الأرض، فاقتربت من الأرض لتُحضرها فرأت خيال شخص ما، فصرخت، ولكن لسانها عقد عن التحرك.

كان خالد مشغولًا في البحث عن محفظته، يبحث في كل غرفة.

أين وضعها؟

بدأت "مليكة" تجري بأقصى سرعة تدركها قدماها، لتصل إلى السيارة، لتختبئ بها، أشارت بالقفل الإلكتروني للسيارة مِن بُعد لفتح الأبواب.

وبالفعل فتحت بسرعة، وهي خائفة، ترتجف من الهلع، وأغلقت على نفسها السيارة، وأحكمت الغلق، وهي بداخلها.

وإذ فجأة... فُصِل التيار الكهربي عن الجراج فقط، لأنها ما زالت تسمع صوت المباراة.

وضجيج الناس من خارج الجراج....

فتحت حقيبتها، وهي ما زالت ترتجف باحثةً عن هاتفها المحمول.

بينما تصرخ وتنادي: خالد! يا خالد!... أنقذني.

بحثت عن الهاتف وسط البعثرة التي داخل الحقيبة، لتضيء المكان، لكنها سمعت أحدهم يحاول فتح باب السيارة بقوة وعنف.

"مليكة": أرجو المساعدة! لينقذني أحد! أرجوكم!

وأخيرًا وجدت الهاتف المحمول وأضاءت به المكان، لتجد وجه ذلك الشاب الأسمر ملاصقًا للشباك، محاولًا فتح باب السيارة وكسر زجاج النوافذ.

أصيبت "مليكة "بنوبة إغماء من أثر الصراخ المتواصل والهلع.

وجد "خالد" المحفظة أخيرًا بجوار التلفاز، وضعها في جيبه، واتجه مسرعًا إلى المصعد لينزل إلى الجراج، فقد تأخر على زوجته.

لحظة وصوله الجراج، تفاجأ بأن التيار الكهربي مقطوع.

نادى على البواب بصوت عالٍ، لينير الجراج، فقدم البواب بسرعة بالغة، فاكتشف أن الأكباس فاصلة، فحاول رفعها ليضيء المكان.

لم ينتظر "خالد" عودة الكهرباء فقد أضاء طريقه، مستخدمًا هاتفه المحمول، ليصل بسرعة إلى السيارة ليطمئن على "مليكة"، في الوقت نفسه نجح البواب في إعادة الأكباس إلى مكانها.

أول نظرة وقعت عيناه عليها، منظر "مليكة" وهي ملقاة في دواسة السيارة مختبئة، مغشيًا عليها، حاول فتح الأبواب، ولكنها كانت موصدة من الداخل، فظل يطرق الأبواب والنوافذ، لكي ينبه "مليكة".

بالفعل أفاقت وحاولت فتح باب السيارة ببطءٍ شديد.

سحبها "خالد " ببطءٍ من الداخل، وحملها بين ذراعيه، محاولًا إفاقتها.

فتحت عينيها الزرقاوين لتنظر في عيني "خالد" متشبثة بذراعيها حول عنقه، واضعة رأسها على كتفه، وقد أغرقت الدموع قميصه.

"مليكة": إنه القاتل! ذلك الشاب! لن أصمت بعد الآن! إنه يريد أن يقتلني بعد أن شاهدته يقتل تلك الفتاة.

"خالد": اهدئي! معكِ حق، لن نسكت بعد الآن، اهدئي أولًا، لن نفعل شيئًا البتة، سوى التوجه إلى قسم الشرطة على الفور، وفي الطريق احكِي لي كل ما حدث بالتفصيل، حتى هذه اللحظة.

ركبا السيارة، وتوجها إلى قسم الشرطة، وبدأت تحكي "مليكة" عن كل شيء شاهدته في تلك الليلة، وأنها شاهدت مشهد القتل وكأنه حُلم لأنها لم تكن في حالتها الطبيعية.

وصل الاثنان معًا إلى قسم الشرطة، وقابلا الضابط المسؤول عن القضية، وتحدثت "مليكة" عن كل شيء تعرفه، بدءًا مما شاهدته فوق سطح المبنى، إلى ما حدث في الجراج.

طمأنها الضابط المسؤول عن القضية، مؤكدًا لها أنهم يراقبون كل شيء بدقة بالغة، وأن ذلك الشاب تحت المراقبة بالفعل.

ولكن كيف هرب من المراقبة تلك ليفعل ما فعله هذه الليلة؟!

لن أغادر مكتبي الليلة حتى أراجع ملف مراقبته بنفسي.

وعاد كلٌّ من "مليكة" و"خالد" إلى بيتهما، يحاول خالد طوال الوقت أن يطمئن زوجته، ويهدئها، فقد تحولت حياتهما الهادئة، البسيطة، المحفوفة بالحب والعشق إلى ضجيج وهلع، إلى قسم الشرطة والشهادة على جريمة قتل....

شيء لم يكن في الحسبان،

تُرى ما تحمله الأيام القادمة؟

قرر "خالد " القيام بأجازة من العمل؛ لا يستطيع أن يترك "مليكة" في هذه الحالة، وفي تلك الظروف الصعبة. كلم "ياسمين " على الهاتف المحمول وطلب منها أن تساند "مليكة" في ظروفها هذه الأيام.

وبالفعل لبَّت "ياسمين" النداء، وأسرعت للوقوف بجانب صديقتها.

كانت "ياسمين" نعم الصديقة الوفية، المساندة، فقد لبت النداء بسرعة حتى إنها طرقت الباب على "مليكة" ودخلت عليها مبتسمة، تملأ البشاشة وجهها، لتسري عنها، كأنها أدخلت ضوء النهار في البيت، حتى إن "ياسمين " دخلت بنفسها المطبخ، لعمل القهوة.

أما "مليكة" فكانت عابسة، الهالات السوداء تحيط بعينيها الزرقاوين، تتحرك ببطء، منهكة الأعصاب، مستسلمة على الأريكة.

شاهدت "ياسمين" "محمد" من شباك المطبخ، ولوحت له مبتسمة: صباح الخير.... أيها العابث بقلبي.

فأجابها: صباحك زهور وريحان أيتها الملاذ الأخير.

وغمز لها بعينه غمزة جعلت وجنتيها تحمّر بشدة..... فأغمضت عينيها لتفيق..... آخذة القهوة لمليكة لتشارك صديقتها الحديث في غرفة المعيشة.

وبدأت "مليكة" تقص ل "ياسمين" كل ما بداخلها وكل ما حدث.

طبطبت "ياسمين" على "مليكة" وضمتها في حضنها لتشعرها بالأمان.

ثم اتجهت "مليكة" إلى غرفة نومها وأحضرت تلك العلبة الغريبة، وتناولت حبة من تلك الحبوب.

تلك الحبوب التي أخذت منها "ياسمين" العينة لتفحصها بالمعمل.

صمتت "ياسمين "وبدأت تشك في تصرفات "مليكة" وتربط تأثير ذلك الدواء عليها.

خرجت "ياسمين "من بيت "مليكة" مسرعة، وتوجهت إلى سيارتها، وقررت الذهاب إلى المستشفى بسرعة.....

رنّ "محمد" الهاتف على "ياسمين ": كيف حالكِ؟ أوحشني صوتك العذب، الرنان في أذني.

"ياسمين": كلامك يجعلني أبتسم، حتى إن الناس يلتفتون لي، شكلي يتغير فجأة أثناء كلامي معك.

"محمد": هل أضايقك؟ فأنا لا أتمالك نفسي حين ينطق لساني بهذا الكلام، لا أملك السيطرة، حين أغازلك بعذب الكلام.

"ياسمين": بالطبع، أشعر بالسعادة، وأشعر بفرحة تغمرني، حتى إني أطير كفراشة محلقة في السماء، ولكن ما أخشاه هو نظرة الناس لي..... أجدني... كأني مكتوب على وجهي.. أنا أحب.... وكأن كل الناس يقرؤون ذلك.... فأشعرُ بالخجل، ولا أقوى على النظر في أعينهم.

"محمد": سأخفف عنكِ قليلًا، لذا سأقول لكِ كلمة واحدة فقط.

"ياسمين": ما هي؟

"محمد": أعشقُكِ... أعشقُكِ يا ملاذي الأخير؟

"ياسمين": أنا ملاذك الأخير؟

"محمد": "نعم الملاذ والأخير، علمتني الحياة.....

طالما لا نغضب الله خالقنا، لذا أتحدثُ إليكِ بحرية، بعدما اتفقنا أنا ووالدك على تفاصيل الزواج.

زواجنا سيجعلني أُزيدكِ عشقًا فوق عشق".

"ياسمين": كل هذا الحب لي أنا... لا أصدق... أعيش حلمًا جميلًا لا أريد اليقظة منه أبدًا.

"محمد": احلمي وازدادي حلمًا فوق الحلم..... سأزيدكِ حبًّا وعشقًا، يا زوجتي.... باعتبار ما سيكون.

وصلت ياسمين إلى المستشفى للتأكد من عينة التحاليل، التي قامت بها من قبل، سألت طبيب التحاليل أن يخبرها بالتفصيل عن تلك الحبوب.

فأجابها الطبيب: في المرة السابقة، لم أكن متأكدًا من شيء ما، ولكن بعد أن أجريت التحاليل بعد ذلك، تأكدت مما كنت أشك فيه....

إنها حبوب مكورة، عند فركها تجدينها عبارة عن أعشاب مضغوطة بشدة لتأخذ شكل الحبوب الصغيرة تلك.....

إنها (الفودو) للأسف... فعلًا هي أعشاب (الفودو) مضغوطة على شكل حبوب.

"ياسمين": الفودو؟!، ما هو هذا (الفودو)؟

"الطبيب": "إنها نوع من أنواع المخدرات، التي تُصيب الإنسان بهلوسة، وذلك على حسب الجرعة، ومن الواضح أن تلك الجرعات صغيرة فتصيب بهلوسة محدودة.....

من يتعاطى هذه الجرعة الصغيرة، يتسمر في مكانه ويبدأ في الهلوسة وتخيل أشياء قد لا تحدث بالفعل.....

يختلف عمن يتعاطى بنسبة أكبر، يبدأ بفعل أشياء لا يشعر بها، ويظل بين اليقظة والحلم، لا يعرف في أي عالم يكون... ويزداد الأمر سوءًا مع مرور الأيام والسنوات.

لم تقوَ "ياسمين" على الحركة، من المفاجأة فقد ضج عقلها من شدة التفكير.

ماذا تفعل؟

عندما علمت في المرة السابقة أن الحبوب نوع من أنواع المخدرات، لم تهتم، لأنها كانت تظن أن تلك الحبوب ربما كانت علاجًا لمرض معين أو مسكن لآلام في الجسم، أما الآن وقد علمت بكل تلك الحقيقة، فلم يعد الأمر هينًا.

لم تجد أمامها سوى خطيبها "محمد".

"ياسمين": محمد! أنا في محنة شديدة، ولا أعرف التصرف.

وقصت "ياسمين" كل تلك الأحداث على خطيبها، تنتظر منه حلًّا فأجابها:

- لا بد من إخبار "خالد" بكل تلك التفاصيل، فهي زوجته، ونحن لن نتركهما، ولكن علينا إبلاغه أولًا.

على جانب آخر.....

استدعت الشرطة ذلك الشاب الأسمر، ذا الشعر الكثيف للتحقيق معه في أقوال "مليكة".

"وكيل النيابة": اسمك، وعمرك، وعنوانك؟

أخبره الشاب باسمه وعمره وعنوانه بالفعل.

"وكيل النيابة": ما قولك في اتهام السيدة "مليكة " لك بأنك قد خنقت الفتاة بالوشاح، وأنك حاولت قتل "مليكة" نفسها في الجراج.

"الشاب": سيدي! أنا من أبلغت الشرطة عن الحادث، فكيف أكون القاتل؟!

"وكيل النيابة": كلي آذان مصغية، فلنبدأ التحقيق من جديد..... أسمعك....)

ارتسم على وجه الشاب الهدوء والحزن الدفين، جلس على الكرسي جلسة المستريح، واتكأ بظهره راجعًا للخلف، ناظرا بعينيه إلى سقف الحجرة متأملًا، هاربًا بدموعه التي ملأت عينيه حتى فاضت وسالت على وجهه.....

"الشاب": "لا أعلم من أين أبدأ! هل أبدأ من اللحظة التي وصلت فيها متأخرًا فلم أستطع محاربة الزمن الذي حال بيني وبينها لأفك ذلك الوشاح اللعين الذي أحكم على رقبتها وكأنه التصق بها؟ أم أبدأ من لحظات بدايتي للعمل معها في الشركة؟

كنتُ المساعد لها.... كانت نشطة مليئة بالحيوية..... سعيدة تنشر البهجة أينما تكون، يحبها الجميع، مفعمة بالآمال والطموحات.....

اختارتني أنا لأكون معها، أساعدها طوال الوقت، حتى إنني كنتُ أحمل الأوراق والطرود معها إلى بيتها لكي لا تحملها وحدها، وكنت أوصلها كل يوم، ثم أنتظر تحت الشجرة بجوار المبنى، لا أقوى على المغادرة قبل أن تُطفئ النور، وتسحب الستائر، أعرف وقتها أنها استعدت للنوم، حينئذ أطمئن عليها، وأعود إلى بيتي.

فهي تعيش وحدها..... فقد انفصل أبوها وأمها منذ فترة بعيدة، وكل منهما بدأ حياة جديدة، كل منهما عاش حياة كاملة بعيدة عنها، ونسياها، أو تناسياها.

كانا في البداية على صلة بها، ثم بدأ الانشغال، والحجج للبعد... بدأ التعب النفسي، كما بدأ التردد على عيادة الطبيب النفسي، فقد كنت ملازمًا لها أغلب الأوقات.

"وكيل النيابة": معك عنوان الطبيب؟

"الشاب": نعم، ها هو العنوان، ورقم الهاتف.

وأعطاه كل البيانات.

وأكمل الشاب حواره: "أحبها منذ سنة، كان يزداد هذا الحب يومًا بعد يوم، كنت لا أشعر بالوقت وأنا معها، كأني

أعيش في عالم آخر، حتى شعرتُ بتلك (الوخزة) التي تحفرُ في القلب، وتمزق في عروقه، الويل لكل من أصابته... معاناة... شجن...

أصبحتُ حطام إنسان...

عجز الصبر عن تحمل صبري...

إذا سألتني... اسألني عن غياب الحياة... غادرت حبيبتي وغاب معها كل شيء، أصبحتُ غريبًا دونها، رحلت دون إذن مني، رحلت وقد سرقت نبضات قلبي، سرقت عمري، دُفِنت أحلامي معها، لم يبقَ لي شيء..

إذا سألتني كيف كنت عندما دخلت ووجدتها معلقة بذلك الوشاح اللعين لأجبتك... أن أنفاسي كانت تخرجُ من جسدي، كأنفاس المحكوم عليه بالإعدام. تعلقتُ بجسدها، أرجوه أن يعيد لي روحها.....

فأنا حارسها..... هل تموت الملكة ويبقى حارسها؟! هل تموت الملكة ويبقى حارسها؟! لم يعد يكفيني سواها..... لم يعد يكفيني سواها".

ثم سحب السلاح الناري من جيب وكيل النيابة دون أن يشعر في لحظة، لم تكن محسوبة، ووضع فوهته في فمه، وفي سرعة خاطفة سحب الزناد..... وضغط.... فخرجت طلقة الرصاص، لتنفذ في الرأس.

مشهد مرعب.....

الدماء في كل مكان في الحجرة... لطخت المكتب وأوراق التحقيق..... والدهشة والهلع يطغيان على وكيل النيابة وكاتب التحقيق، والشرطة التي ملأت المكان في لحظة.

غادر ذلك الشاب الحياة، فقد غابت عنه حبيبته، وتركته في وحشة الأيام. ربما هي كانت نور حياته، التي يستنير بها في أيامه الشاقة، والتعبة.

أصابته بالأسر، فأصبح مقيدًا بالأغلال، ولكن ليس كأي أغلال.

فهي أغلال يعشقها صاحبها، مُتيم بها، ملاذه الوحيد في درب الحياة.

لا يجرؤ أحد من البشر أن يُنكر ذلك الإحساس، فإنه يقين خُلقنا به وسنموت به.

تراها في ملامح وجهه

تراها في ضحكته التي تعلو وتزلزل بنبرة تختلف عن سواها.

تراها في مشيته، التي تشق الطريق وتطويه طيًّا وكأنما يريد أن يحتضن كل الناس، وكأنما يريد أن ينثر الزهور في وجه المارة قائلًا لهم..... أصابني عشق..... أصابني عشق.

ولكنها الحياة لا بد أن تستمر،

من مات يُدفن..... وتواصل الأيام تتابعها....

بكى وكيل النيابة بكاءً شديدًا؛ لم يواجه مثل هذا الموقف من قبل، لم يرَ مثل هذا العشق في زمنٍ انتشرت فيه الفوضى، والستروكس، والفودو، والعبث الحالي. هناك زهرة تنبت وسط تلك الصحراوات الجافة.

لا يزال هناك جزء لم يُغلق في تلك القضية، ألا وهو..... شهادة "مليكة" بأنه قد حاول قتلها.

قام وكيل النيابة باستدعاء رسمي ل "مليكة" لإعادة أخذ الأقوال، بعد تلك المستجدات.

في الوقت نفسه كانت "ياسمين" في حيرة كبيرة لإبلاغ "خالد" بأمر "مليكة" ومخدر الفودو الذي تتعاطاه.

اتفقت "ياسمين "و"محمد" على مقابلة "خالد" في مكان هادئ، بعيد عن البيت، واتفقا معه ألا يخبر "مليكة" بشيء.

حاول "خالد " أن يتحجج لزوجته بأي حجة للنزول بسرعة لمقابلة الصديقين. ووصل إلى ذلك المكان الهادئ المطل على النيل، ورحبا الصديقان به، وهدّآه في البداية.

"ياسمين": لن أطيل في الكلام كثيرًا، قمتُ بشيء لا أعلم إن كان صوابًا أم لا؛ قمتُ بتحليل الحبوب التي تتناولها "مليكة". ووجدتُ أنها..... مخدر يشبه الفودو.

"خالد": ماذا تقولين؟ أي حبوب؟ عن أي حبوب تتكلمين؟

"محمد": اهدأ يا خالد، سأشرح لك ما حدث بالتفصيل.

قصّ "محمد" كل ما فعلته "ياسمين" منذ أخذها للحبوب في أول الأمر، ثم متابعة فحص العينات مرة أخرى.

صمت "خالد"..... لم يقوَ لسانه على النطق بأي كلمة، هناك الكثير والكثير من الأسئلة والكلام الذي لا بد أن يكون بينه وبين زوجته.

لم يستطع إجابتهما على أي شيء، فقد شرد ذهنه هناك..... في بيته..... في زوجته ومعشوقته.

تركهما دون أي كلمة، دون سلام، وجد نفسه يتحرك كصنم، كشجرة مقطوعة تجرُ أذيالها، يتحدث مع نفسه طول الطريق وهو يقود سيارته، لا يرى سوى صورة حبيبة عمره، ذات العينين الزرقاوين.

(هل هذا حلم..... أشعر أني أعيش في كابوس مظلم.... هل.... هل....؟

عقلي سَيُجن، "مليكة" مدمنة!، لا أصدق، زوجتي..... تلك الطفلة... نعم أعدُّها طفلة في كل حركاتها، وتصرفاتها، فجأة أجدها منغمسة في ذلك العالم البذيء، عالم المخدرات.... ولماذا؟)

ظل "خالد" يسأل نفسه طول الطريق: "تُرى هل كل ما تحدثت عنه "مليكة" كان وهمًا؟ كل تلك الأحداث كانت ضمن تأثير الهلوسة الناتجة عن هذا الفودو"، ولكن دون إجابة حتى وصل إلى البيت.

فاجأه البواب بذلك الاستدعاء من النيابة، فأخذه "خالد" منه دون أن ينبس بكلمة واحدة، وصعد إلى شقته، ودق جرس الباب... فتحت "مليكة" له الباب.

"مليكة": أهلا... حبيبي..... أين كنت؟ ولماذا تُغرب عينك عني؟ لماذا لا تنظر إليّ؟ عيناك تهرب مني.

"خالد": لا أعلم من أين أبدأ كلامي، أعطني الحبوب التي معكِ.

صمتت عن الكلام، وارتسم على وجهها كل ملامح القلق والخوف.

"مليكة": عن أي حبوب تتكلم؟

"خالد": تلك الحبوب التي تتناولينها كل يوم.

"مليكة": ماذا تقصد؟ لا أفهمك؟

وحاولتِ الفرار منه بسرعة إلى المطبخ لتصنع أي شيء، إلا أن خالدًا نادى عليها بصوت عالٍ.

"خالد": لا تتهربي! قفي مكانك! أتتعاطين الفودو؟

"مليكة": أي فودو؟

"خالد": لم أعد أقوى على الكلام، أعصابي تعبت.

"مليكة": أنا بالفعل أتناول الحبوب، ولكنها ليست الفودو تلك.

"خالد": أرجوكِ، اجلسي بجواري، أخبريني كل شيء عن تلك الحبوب.

"مليكة": اهدأ... سأخبرك.

وبدأت "مليكة" تقص عليه كل ما حدث لها وهي في المغرب، وكل ما تعرضت له من إغماء، ومحاولات أبيها وأمها لعلاجها.

وأخبرته أن العرافة التي تقيم في الجبل، هي التي أعطت لأمها تلك الحبوب وأكدت عليها بأن أتناولها كل ليلة، حتى إنها قربت على النفاد منها، فهي تُبعد الأرواح الشريرة عنها، حتى تهدأ روحها وتنام.

"خالد": حبيبتي.. نحنُ في ورطةٍ كبيرة، أنتِ تتعاطين الفودو!

"مليكة": أي فودو؟

"خالد": حبيبتي.... هذه الحبوب ما هي إلا مخدر يشبه الفودو.... خدعتكِ تلك العرافة، لا بد أن تقومي بالتحاليل، للتأكد من ذلك.

"مليكة ": مَن أخبرك بكل تلك التفاصيل؟

تنهد خالد قليلًا، ثم أخبرها بما فعلته "ياسمين" وأنها شكّت في تلك الحبوب، وقامت بعمل فحص معملي لها للتأكد منها.

سكتت "مليكة"، بدا وجهها شاحبًا، كل تلك الصدمات المتلاحقة، فوقعت مغشيةً عليها.

حملها "خالد" بسرعة إلى غرفة نومها، واتصل على الفور ب "ياسمين"، ليطلب منها المساعدة.....

وبالفعل لبَّت "ياسمين " النداء، وجاءت على أهبتها، طرقت الباب بلهفة لتعرف ما حلَّ بصديقتها، قامت بقياس الضغط لها وحاولت إيقاظها بكل الطرق الطبية المتاحة، ولكن للأسف فهي لا تزال مغشيًا عليها.

طلبت من "خالد" نقلها على الفور إلى المستشفى الطبي الذي تعمل فيه، حتى تستطيع أن تكون بجانبها، وترعاها.

طلب "خالد " من "ياسمين" أن تساعده في تجهيزها على الفور، وطلب الإسعاف لنقل "مليكة" إلى المشفى.

بينما "خالد" يجلس بجوار "مليكة" في سيارة الإسعاف، يشرد ناظرًا للطريق، وتمرُ كلَّ تلك الأحداث أمام عينيه وكأنه فيلم سينمائي.

لا يستوعب أيًّا من هذه الأحداث، السعادة اختفت.... تحولت إلى خوف وهلع، الحب تبدل إلى شك وتساؤلات ليست لها أجوبة في ذهنه.

تملأ الدموع عينيه، ذلك الفيض من الدموع المحبوسة التي تنتظر لحظة الفيضان.

القلق من القادم.

تُرى ماذا سيحدث لزوجتي؟

هل ستعود الحياة بيننا كما كانت؟

هل نحلمُ حلمًا قبيحًا؟

تنهد "خالد" تنهيدةً طويلة، مستسلمًا، لم يعد يقوى على المعافرة.

وصلت سيارة الإسعاف إلى ذلك المستشفى، حاول الأطباء إفاق "مليكة" من إغمائها، وبالكاد تمكنوا من ذلك.

كانت "ياسمين" واقفة بجوار سرير صديقتها، تراقب عن كثب لحظات إفاقتها لكي تطمئن عليها، وبالفعل كانت أول نظرة لمليكة محدقة في عيني صديقتها.

نظرت "ياسمين" إليها نظرة تملأها الحنان والعطف، واللهفة عليها.

"ياسمين": حمدًا لله على سلامتكِ، أفيقي يا أغلى الأصدقاء..... قضيت ليلةً غصة، اطمئني..... سأبقى معكِ..... لن أتخلى عن صداقتك أبدًا.

"مليكة": أين أنا؟ أين خالد؟

"ياسمين": في الخارج، ينتظرُكِ بفارغ الصبر، استأذنته للبقاء معكِ.

كان "خالد" خارج الغرفة، عقله يتأرجح بين زوجته التي تقبع في فراش المرض، وبين استدعاء وكيل النيابة لهما.

تُرى ماذا عليه أن يفعل؟

هل يتجاهل ذلك الاستدعاء؟

هل....؟

هل....؟

كاد عقله أن يُجن، الحيرة والخوف يقتلانه، فجاءه الحل بسرعة البرق من صديقه "محمد"، أبلغه أنه اتصل بالمحامي ليستشف منه حلًّا عاجلًا.

أبلغه المحامي أنه يستطيع أن يقدم تأجيل المثول أمام النيابة في الوقت الحالي، وأن "ياسمين" تستطيع أن تُساعدهم في عمل تقرير طبي على مسؤوليتها، يُفيد بأنها ملازمة للفراش في المشفى.

تنهد "خالد" تنهيدة، هي أشبه بإنقاذ أحدهم من غرقٍ كاد أن يُودي بحياته.

سمع "خالد" صوت "ياسمين" تناديه، لتخبره بعودة "مليكة" لوعيها. دخل مسرعًا، محتضنًا زوجته، وحبيبته، لا يبالي بتلك الأسلاك والأجهزة المعلقة، يحتضنها بدفء وقوة، وهي تتكئ على كتفه، تعلن حاجاتها له، بتشبث أصابعها بملابسه، أقبضت كلتا يديها وهي ممسكة بملابسه.

مثل ذلك المشهد يُغني عن أي كلمات تنبُس بها الشفاه.

تعلق كل منهما بالآخر، قدرٌ محتوم على كليهما، فقد توافقت الأقدار بينهما، فجعلتهما كيانًا واحدًا.

حين ارتمى "خالد" في حضن زوجته، هو بالفعل لم يكن يساندها بقدر حاجته لمساندتها هي له، كان يتحصن بها... كان يرتجي منها وعدًا بالبقاء.

وحين تشبثت مليكة بأصابعها في ملابسه... فهي كانت تُجيبه وتمنحه ذلك الوعد المرجو.

مشاعر الحب الحقيقي..... الذي ينمو وينضج وسط صحراء مُقفرة، لا يشوبه التخاذل، لا يعرف الانهزام، لا يعي سوى معنى واحد..... أنا لك وأنت لي ما دامت الحياة قائمة.

أما هؤلاء الذين يدعون العشق والهوى، فتفضحهم ردود أفعالهم عند أول عثرات الحياة، لا تجد منهم سوى التخاذل، والأنانية المُطلقة.

على الجانب الآخر.....

جهزت "ياسمين" الأوراق اللازمة للخروج من المشفى، وكتبت التقرير الطبي على مسؤوليتها الشخصية، لتتجنب

مليكة عمل التحاليل الطبية، التي كانت بدورها، ستكشف أمر مخدر الفودو.

عادت "مليكة" إلى بيتها، بصحبة زوجها وصديقتها، متكئةً عليهما.

أدخلتها "ياسمين " في فراشها، وجلست بجوارها بعض الوقت، وجلسا كل من خالد ومحمد في غرفة الاستقبال ليناقشا معًا سفر "مليكة" إلى المغرب للعلاج.

كان ضروريًّا الابتعاد عن القاهرة في الوقت الحالي، لحين التأكد من شفاء "مليكة "حتى لا تتورط في تلك القضية، التي لا يزال التحقيق فيها مستمرًا، ولا أحد يعلم أبعاد التورط في تلك القضية.

بدأ "خالد" في إجراءات السفر، وذلك قبل أن تُصدر النيابة المنع من السفر.

الهم ثقيل والمحنة كبيرة، ولكن العزم والهمة للنجاة من طوفان الغرق أصبح الشغل الشاغل في الوقت الراهن.

هل سيصمد ذلك الحب أمام تلك العاصفة القوية؟

فعلى "خالد" الآن كسر تلك الصخور الصلبة، ليوفي بوعده لزوجته الحبيبة، فقد منحها وثاق السند من قبل.

وبالفعل اتصل بوالدي "مليكة" ليمهد لهما بهذه الزيارة المفاجئة.

بدأت تظهر على "مليكة" علامات الإدمان، خاصة بعد مرور شهور طويلة في تعاطي تلك الجرعات الصغيرة، لذا كانت لا بد لها من تناول بعض المسكنات القوية التي تساعدها، وكانت تلك مسؤولية "ياسمين" التي حاولت جاهدة مساعدتها في توفير المهدئات اللازمة.

جاء وقت السفر، واتجه الزوجان إلى المطار للحاق بالطائرة المتجهة إلى المغرب، وبدأ مشهد تلك العروس بفستانها الأبيض يرتسم أمام عيني "مليكة" عندما استقبلها "خالد" في ذلك اليوم بالورود والترحاب، وكانت عيناه مملؤة بالشغف واللهفة، وكيف تحول ذلك المشهد الآن إلى زوجة مريضة أصابها الوهن، وزوجها المسكين الذي يحمل فوق كتفه الصعاب والهموم.

وهذا هو الحال في دنيانا، فهي لا تسير على وتيرة واحدة، فاليوم مرح وفي الغدِ الشقاء.

هبطت الطائرة في مطار الرباط في بلاد المغرب، وكان في صالة الاستقبال الحاج عرفة وزوجته، كانا في شوقٍ شديدٍ لابنتهما التي لم يرَها فعليًّا من العام الماضي.

بحثت أعين الأم في وسط القادمين عن ابنتها حتى وقعت نظراتها على فتاة تشبه "مليكة"، شاحبة الوجه، نحيفة الجسد، لا تقوى على السير.

"الأم": من هذه؟ هل تلك ابنتي؟ لا.. لا... مستحيل.

"الحاج عرفة": اهدئي؛ لا نعلم ما بها.

رأت "مليكة" أمها وأباها فهرعت جريًا لترتمي في أحضانهما.

وكأنها تُلقي بحملها الثقيل في تلك الأحضان، تبتغي سُقيًا يروي ظمأها.

تلتمس ضمة جرحها الدامي، تتلهف الخلاص والنجاة من تلك الأشواك التي علقت بها، وسرقت فرحتها، فهي لا تدري.... هل بُعدها عن بلادها هو الجاني، أم صمتها الواهن؟

"الحاج عرفة": ما بكِ يا ابنتي؟ لمَ أرَكِ شاحبة الوجه... هزيلة الجسد هكذا من قبل؟)

"مليكة": همومٌ وأوجاع أصابتني يا أبي.

ترقرقت عيناها بالدموع، لم تستطع حبسها، فانهمرت كالسيل على خديها حتى بللت ثيابها.

أسرع خالد في لملمة الموقف، وطلب منهم الإسراع للتوجه للبيت. يسألهم الصبر حتى يتسنى له شرح كل شيء لهم بالتفصيل.

اتجه الجميع إلى السيارة للذهاب إلى البيت، كان الصمت هو الحالة السائدة وكأنّ على رؤوسهم الطير.

وصلت الأسرة المكلوبة إلى البيت، ولكن ليس بنفس الإحساس التي غادرته مع "مليكة" منذ ما يقرب من عام.

"الأم ": ماذا فعلت بابنتي؟ ماذا فعلت بها؟

وأمسكت الأم بقميص خالد بعنف تدفعه ليخبرها عما حدث لابنتها.

هدّأها خالد لكي يستطيع أن يشرح لهم كل ما حدث.

مرت أكثر من خمس ساعات في أثناء حديث "خالد" مع والدي "مليكة "يتناقشون ويتحاورون حتى علت الأصوات.

"الحاج عرفة": أنتِ من فعلتِ هذا بابنتنا... حذرتكِ كثيرًا من الاستعانة بتلك العرافة... كنتُ أشعر بأفعالها المريبة... كنتُ متأكدًا أنها تبيع الوهم... نعم ليست ساحرة شعواء فحسب، بل تبيع المخدر لأبنائنا بالإكراه... توهمنا بالسحر... وهي مُروجة للمخدرات.

"الأم": أنا من فعلت هذا بابنتي، وسآخذ حقها بيدي.

"خالد": لم نعد نمتلك الوقت للنقاش، علينا الآن أن نطلب العون للعلاج، فهناك قضية مفتوحة لم تُغلق، لا بد من الإسراع في العلاج، ثم نرى بعد ذلك ما سنفعله مع تلك الأفَّاقة.

"الحاج عرفة": سلم لسانك يا بني، ابنتي هي الأهم.

بدأوا في اتصالاتهم للبدء في علاج "مليكة"، كانت الأم تحتضنها منذ ساعات ولم تشعر بإغمائها.

صرخت الأم وهي تحاول إفاقة ابنتها، طلب الحاج عرفة الإسعاف على وجه السرعة.

توجهت "مليكة" إلى المشفى للعلاج، ورافقها كل من الحاج عرفة وزوجها.

بينما تسللت الأم دون أن يشعر أحد، واتجهت مسرعة إلى الجبل.

كانت الأم غاضبة بشدة لما حدث لابنتها "مليكة" يملأ الشعور بالانتقام عقلها وقلبها، فهي تشعر بالندم والذنب الشديد.

فهي من لجأت إلى تلك العرافة، برغم تحذير "الحاج عرفة" لها مرارًا وتكرارًا بعدم الذهاب لها، وعدم الاستسلام لأفكار السحر والشعوذة.

تسير الأم في الطريق متجهة إلى الجبل، شاردة لا تعي ما تفعل، لا تدرك من حولها، لا ترى سوى مسار واحد فقط.

كان ضوء النهار بدأ في التملص، ليحل محله ظلام الليل الدامس، صوت الغابة الموحش ليلًا يسبق خطواتها، تحاول أن تطوي تلك الأشجار طيًّا لكي تُنهي طريقها لتصل إلى ذلك الجبل، حيث تقيم تلك الأفَّاقة.

وصلت الأم إلى ذلك المكان الموحش، واختبأت في مكان قرب السرداب بحيث لا يراها أحد، وهي مختبئة شاهدت تلك العرافة وهي تقوم ببعض الطقوس الكهنوتية المرعبة.

أصوات خافتة لشبح خفي لا تراه، حاولت الأم حبس أنفاسها، ولكنها فوجئت بذلك المخلوق الذي هرع وراءها.

شكل غامض لمخلوق بشع، يلاحقها في المكان، تسقط على الأرض ويعلوها هذا الشيء طائرًا فوقها.

تُحاول الوقوف، ولكن يداها مكبلة لا تستطيع تحريكها، عيناها قد ثبتت، لا تقوى على تغيير نظرتها إلى مكان آخر، وتصلب جسدها كأنه حجر أصم.

رعشة غريبة تجتاح جسدها، بعد محاولات بائسة ويائسة لتحريك أي أصبع من أصابعها.

لم تقوَ على شيء سوى صراخ متقطع، مُصاحب بكلمات غير مفهومة.

حضرت العرافة، ورمقتها بنظرة خبيثة، نظرة لا يُفهم منها شيء سوى المصير الدامي.

أشارت العرافة إلى لسان الأم لكي يُفك لجمها، فكانت أول كلمات الأم:

- لمَ آذيتِ ابنتي؟ لمَ آلمتها وأسقطتِها في بئر الإدمان؟ لمَ فعلتِ ذلك بي؟

"العرافة": أنتِ بلهاء، لقد أتيتِ إلى هنا ولجأتِ إليّ وتعلمين أني مُتَّبِعةٌ (لسحر الفودو)، ذلك السحر الأسود الذي يُسخِّر الجن والأشباح لخدمة صاحبه. أنتِ لا تدركين أن بداخلي تلك الروح لجسد بالٍ منذ قرون، تربط بيني وبين من في القبور، وأنه عليّ إرضاء هذه الأرواح بأي شكل كان. أرأيتِ الآن، ما أفعله بكِ، تتسمرين كالحجر، لا تتحركين. مُقلتيكِ قد ثُبتت في مكانها، لا تقوى على الحراك. كنتِ تُريدين علاج ابنتك، فكنتُ أرفَقُ بها منكِ، لم أسيطر عليها بسحر الفودو، ولكنني أعطيتها تلك الأعشاب المضغوطة على شكل حبوب صغيرة، ما يُسمى (الفودو) لكي تنسى آلامها..... وتمرح كبقية الشباب. أما أنتِ فلن ينالك إلا سحر الفودو".

وجلبت العرافة دُمية قبيحة الوجه، وأقبضت عليها بإحدى يديها. وتمسك في اليد الأخرى بدبابيس.....

كلما غرست دبوسًا في رأس الدمية، شعرت الأم بتنميل في أطرافها.

ثم أصاب جسدها صعقًا، هو أشبه بصعق الكهرباء.

ظلام موحش يسود المكان

مخلوق بشع مخيف

عرافة أفَّاقة.....

وتلك الأم ملقاة على الأرض، تواجه سحرًا أسودَ لعينًا.

*****

لم يكن الحاج عرفة على دراية بمكان زوجته، كان مشغولًا بابنته في المشفى.

بعد مرور ساعات، انتبه لعدم وجودها، فأسرع بلهفة واضحةً يبحثُ عنها.

"الحاج عرفة": أين ذهبت زوجتي؟ تُرى أين هي؟ أتكون هناك..... هل فعلتها مرة أخرى؟

كان الحاج عرفة في حيرة بين البحث عن زوجته، وبين البقاء للاطمئنان على ابنته. لم يتوقع حدوث أي مكروه لزوجته، إلاَّ أنه قد شعر بغُصَّةٍ في صدره، فطمأن نفسه قائلًا: "لعله خير، لعله خير". ومكث في المشفى بجوار ابنته، كلما نظر إليها وهي في تلك الحالة من الوهن والضعف، اشتدت رغبته في الانتقام من تلك العرافة.

كانت العرافة قد تركت الأم وحدها في ذلك الكهف الموحش، مُلقاة على الأرض.

في تلك اللحظات..... كانت الأم تنظر إلى الأعلى، واعية، ولكن غير قادرة على الحركة تمامًا، تسيل الدموع من عينيها وتنهمر على وجهها. ربما كانت تلك الدموع تغسل ما فعلته الأم،

تُذيب الشقاء المعلق في القلب، ربما تُزيل الذنب الذي فعلته حين لجأت لتلك العرافة.

اقتربت منها العرافة بقسوة، حاملة تلك الدمية، وما زالت تغرس الدبابيس. وكلما غرست دبوسًا، صرخت الأم،

مع غرس كل دبوس في الدمية، تُصعق الأم بألم شديد ومُميت.

انتبهت الأم أخيرًا إلى الملاذ للخلاص من هذا العذاب، حينما تذكرت ما كان يفعله الحاج عرفة، فأخذت تتلو آيات القرآن الكريم، في هدوء، مستسلمة لقضاء الله.

كلما تلت الآيات المحصنات التي كانت تسمعها من الحاج عرفة، وذكرت الله كثيرًا، بدأ لسانها ينفرج عن لجامه.

فبدأت تُكبر.... الله أكبر... الله أكبر

واستمرت في تلاوة سور القرآن الكريم، والآيات المنجيات، بينما تسمع صُراخ من حولها يطلب منها أن تَكُف عن التلاوة.

ولكنها أدركت أنه لا مفر مما هي فيه إلا بعون الله.

فكلما زادت الأم زاد الصراخ، واشتدت عليها العرافة في دفع الدبابيس لتؤذيها.

مشهدٌ قاسٍ للأم، الأم ترتجف ولكنها تشُدُّ من أزر نفسها بقراءة آيات القرآن الكريم.

لم تقوَ العرافة على منع الأم عن تلاوة القرآن الكريم، فقد آمنت الأم بعد تلك السنوات الطويلة من اللجوء إليها، أن الملاذ الأوحد والأخير للنجاة من كل المحن التي نواجهها في هذه الدنيا هو الخالق.

الله، الرحيم بعباده، المُنجي، مالك الملك.

﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤ ﴾[١]

وبالفعل، سمعت الأم صرخة كبيرة مُدوية لتلك العرافة، شعرت منها حينئذ أن ذلك الجني قد احترق، لأن الأم عادت تشعرُ بجسدها مرة أخرى.

---

[١] الإخلاص: ١-٤.

فبدأت تحرك يديها ورجليها، وظلّت تتحسس جسدها ووجهها بأكمله، فقد عاد لها الشعور بنفسها مرة أخرى.

استنهضت همتها، ووقفت على قدميها، وقررت أن تفر هاربة من هذا المستنقع البغيض.

كادت العرافة أن تُجن، فقد ظلت لسنوات تُحاول تسخير ذلك الجني، والعبث للوصول إلى ذلك السحر الأسود اللعين، فجرت بسرعة وراءها وهي غاضبة، يملأها الشر، وطعنتها بخنجر عدة طعنات نافذة حتى القلب.

توقفت تلك المشعوذة عن الطعن، فقد لفظت الضحية أنفاسها الأخيرة، وفارقت الحياة.

ظلت تلك العرافة تصول وتجول في الكهف، تنادي بأعلى الصوت، مطالبة تلك الروح الخفية بالعودة مرة أخرى، لكنها لا تلتمس شيئًا، سوى الصمت الذي ساد وعبَّأ المكان.

ازداد غيظها أكثر من تلك المرأة القتيلة، فقبضت بيديها على جسدها وجذبتها إلى خارج الكهف، وسحبتها على الأرض بشكل مُروع كأنها جذع نخلة هاوية، وتركتها هناك وسط أشجار الغابة، مُلقاة على الأرض.

أيقنت تلك المشعوذة أن تلك القتيلة قد هزمتها.

نعم، هزمتها حين لجأت للتحصن بكتاب الله،

صرخت في الغابة بصوت عالٍ قائلة:

- أعلم أنك موجود، أعلم أنك قادر على كل شيء، غلبني الشيطان، نعم، غلبني... واستسلمتُ لوسوسته، وابتعدت، وتلذذت بتملك تلك القدرة على التواصل مع الأرواح، والعبث بالسحر الأسود، ودمرتُ أناسًا شتى، وفعلت كل تلك الأفاعيل التي لا تُرضيك... فهل تُريني قدرتك؟

وقبل أن تُكمل كلمتها.....

سقطت في تلك البئر المهجورة، التي يخافها الناس، فلم يقترب منها أحد منذ عهود.

كان الحاج عرفة لا يزال يبحث عن زوجته، التي اختفت منذ يومين. لا يزال اليقين بداخله يزداد، بأنها لجأت لتلك العرافة مرة أخرى.

أودع ابنته في رعاية زوجها، بعد أن طمأنه الأطباء عليها. واتجه إلى قسم الشرطة، ليقدم بلاغًا سريعًا في تلك العرافة بأنها

قد تكون احتجزت زوجته، وذلك بعد أن استغرق ساعات وساعات في البحث عنها داخل القرية.

استجاب له الضابط، وأرسل قوة من العساكر للبحث داخل الغابة، وكذلك تمشيط المنطقة بأكملها.

وبعد ليلتين كاملتين من البحث المضني، وجدوا جثة تلك المسكينة، مُلقاة على الأرض، وقد بدأت في التعفن.

أبلغوا رئيس قسم الشرطة على الفور، الذي بدوره أبلغ الحاج عرفة، للقدوم إلى المعمل الجنائي للتعرف على الجثة.

اتجه الحاج عرفة إلى القسم، وهو لا يعرف عن الأمر شيئًا. ولكن هناك غُصة في قلبه، قدماه لا تحملانه على السير، وكأنه يستشعر بالأمر، عيناه تغرقان في الدموع، صامتًا لا يقوى على الكلام.

أبلغه الضابط بالحقيقة المرة، فسقط جالسًا على الكرسي، يبكي بصوتٍ عالٍ.

كان عليه أن يتعرف على الجثة، ولكنه ثقيل الجسد، وهنت همته، فهو على وشك أن يرى شريكة عمره وهي جثة هامدة، بل ومشوهة المنظر، فقد بدأت في التعفن.

لم يكن ذلك المشهد هينًا، عندما فتحوا باب ثلاجة حفظ الموتى، أخذ يردد:

"لا إله إلا الله، لا حول ولا قوة إلا بالله، اللهم ألهمني الصبر، لله ما أعطى، ولله ما أخذ.... لله ما أعطى ولله ما أخذ".

كان الحزن في قلب الحاج عرفة مقسومًا بين حزنه الشديد على زوجته، وقلقه على ابنته وما حدث لها.

أبلغ "خالد" بالأمر وطلب منه ألا يفارق "مليكة"، ولا يُشعرها بشيء.

حاول "خالد "أن يقف بجانبه لشد أزره، ولكن الحاج عرفة صمم على بقائه مع "مليكة".

كانت صورة الحياة مرسومة بشقين

شق لوحته هي العزاء المنصوب في بيت الحاج عرفة

وشق آخر لوحته فتاة عشرينية في مُقتبل عمرها مُمددة على الفراش في المشفى.

هل أفعال الأم الماضية هي تلك الريشة التي رسمت هذه اللوحة البائسة؟

بعد مرور أيام وأسابيع.....

بدأت " مليكة " في التعافي، فسألت عن أمها مرارًا وتكرارًا، بدأوا في إخبارها شيئًا فشيئًا.

خرجت "مليكة" من المشفى مباشرة إلى المقابر لزيارة أمها.

لم تستطع الصمود أمام ذلك المنظر، حتى ألقت بنفسها على ذلك القبر.

تحتضن أمها وهي راقدة في التراب.

تناجيها بكلمات مُوجعة

تُودعها بمشاعر الحزن الدفين، وحُرقة قلبها على أمها.

-أين ذهبتِ؟ لا أصدق أنني لن أراكِ بعد اليوم؟ لا أصدق أنني فقدتكِ إلى الأبد... أشعر بالمرّ العلقم على شفتي، وقلبي يعتصرُ دمًا، عيناي ترى العالم من حولي وقد انطفأ النور، لا أسمع في أذني سوى صوتكِ وأنتِ تُغنين لي وأنا طفلة، كنتِ تمشطين شعري بحنية بالغة حتى لا أتألم، وتُقبلين جبيني ووجنتي، وتمسحين برفق دمعتي بيديك الطاهرتين، كلما تعثرت.

كنتِ عازفة الألحان العذبة، التي تُداويني، وتُقويني، لمن سأقول يا أمي؟

لم يُعد لي أم... لن أقول يا أمي بعد اليوم".

وبكت بكاءً شديدًا... لم يستطع أحد أن يهدئ من حزنها... فكانت في حاجة مُلحة لتنفس عن غضبها وألمها المُوحش.

عادوا جميعًا إلى البيت، مُرهقين، وكأنهم كانوا في رحلة طويلة شاقة، مُتعبة، عائدين بلا أمتعة.....

مرت أيام وأسابيع.....

كانت "مليكة" قد شُفيت تمامًا مما كانت فيه، وبدأت آلام الجراح أن تُطوى صِحافها. وبعد تداولات عديدة قرروا العودة إلى القاهرة.

ألحَّت "مليكة" على أبيها للمجيء معهم، فهي لا تريده أن يبقى وحيدًا، خاصة بعد وفاة أمها.

وافق الحاج عرفة أخيرًا على الرحيل معهم... فقد فُقِد منه أحد جناحيه، حين فقد زوجته وشريكة عمره، ولم يكن يقوى على فقد الجناح الآخر، وهي حبيبته وابنته "مليكة".

المشهد نفسه يتكرر، وكأن الحياة تُعيد نفسها....

مليكة وأبوها وزوجها في الطائرة، ولكن هذه المرة دون أمها.....

تنظر "مليكة" من شباك الطائرة وعيناها ترتشف الوداع لبلادها وأمها التي ترقد تحت الثرى.

لم تكن الرحلة هذه المرة بنفس اللهفة والشغف، كالسابق؛ تبدلت الأحوال، وارتدت المشاعر صوب الشجن الهادئ....

شجن، ليس له ملامح سوى الصمت الذي يكسوه الحزن الدفين.

كلّ على حده.... شرد بذهنه بعيدًا.

"خالد" سافر بعقله يجول في حياته التي كان يتمناها..... زوجة جميلة، يُحبها ويلاطفها، أولاد صغار يمرحون في البيت، نقاشات ليست بالحادة بينه وبين زوجته حول مصروف البيت.... ثم يصطدم شروده بالواقع الذي ينتظره، حين عودته إلى القاهرة... التحقيق في القضية الذي لا يزال مفتوحًا.

"مليكة" شردت بقلبها لتستعيد صور الفرحة حين شعرت بالوخزة لأول مرة. حين سلمت قلبها وعقلها ودُنياها لزوجها وحبيبها، وقد كان بالفعل السند الحقيقي لها، لم يخذلها يومًا قط، لذا يحفها الشعور بالخوف من أن تخذله....

تخاف أن لا تكون بنفس القوة، التي يتوقعها....

أصبح يملأها الإحساس بخوف فقدانه؛ فأمسكت بيده وأقبضت على أصابعه بقوة، ناظرة إلى عينيه نظرة محملة بالكثير من الحب واللهفة والشوق لأحضانه.

أما الحاج عرفة، فقد كان يقرأ القرآن طوال الطريق، وعيناه دامعتان، كلما قرأ آيات الله الشافية، هدأ حزنه، ورفع يديه داعيًا لزوجته بالرحمة والمغفرة.

هبطت الطائرة، وحمل الجميع أمتعتهم، متوجهين إلى شقتهم.

بدأ "خالد" بالتفكير الفعلي في تلك القضية التي ما زالت مُعلقة، ولا يزال استدعاء "مليكة" للمثول أمام النيابة لأخذ أقوالها ساريًا.

عليه التصرف بسرعة حيال هذا الموقف، لذا طلب من "مليكة" الاستعداد للتوجه للنيابة غدًا.

كانت "ياسمين" فرحة لمجيء صاحبتها، فهرعت إليها للترحيب بها.

"ياسمين": أهلًا بكِ أيتها الغالية، لم أعرف أني أحبك هكذا! فقد أوحشتِني أيتها الجميلة! أولًا... البقاء لله يا عزيزتي.

ثم احتضنتها، محاولة منها التخفيف عنها.

كانتا قد غرقتا في بركة من الدموع، فمسحت "ياسمين" دموعها، وأمسكت بكتفي "مليكة" وهزتها لتستفيق من الهم.

- من غيركِ يساعدني؟ ليس لي أخت سواكِ، من سيختار فستان زفافي؟ لا أحد غيركِ.

مضت تلك الليلة بترحاب "ياسمين" و"محمد" بالحاج عرفة، علموا ما به من هم وحزن، كانا يقدمان ما يستطيعان من دعم ومواساة.

في فجر اليوم التالي.

استيقظ "خالد" لصلاة الفجر، وجلس على سجادة الصلاة يدعو الله راجيًا ومتوسلًا أن يُزيل الهم، ويُفرج الكرب، وأن يُنجي زوجته وحبيبته من تلك المحنة العصيبة.

سمعت "مليكة" مناجاته لربه، فاستيقظت وهمت للوضوء والصلاة معه.

وبعدما أتما الصلاة، جلست "مليكة " على الأرض أمام حبيبها مباشرة على تلك السجادة الطاهرة، وأمسكت بيده فقبلتها.

"مليكة": نعم، يا حب عمري، لا تتعجب.... تلك اليد تستحق أن أقبلها كل يوم، فهي يد العون لي دائمًا، عندما أخاف لا أجد سواها أتشبث بها، وأتعلق بأصابعك كالطفلة ليطمئن قلبي..... أنت نعم الزوج، أقسم أنك كنت نعم الزوج.... أيًّا كان ما سيكون في تلك القضية..... لو... لو..... رغبت في البعد عني فلن ألومك على شيء.

"خالد": لا تُكملي الحديث، أتظنين أني سأتخلى عنك؟ أتظنين أني سأتركك تواجهين الحياة دوني؟ أخطأتِ في حكمكِ عليّ... أيتها القيثارة".

ثم مسح على رأسها وقبَّل جبينها.

انطلق الزوجان إلى النيابة وصاحبهما الحاج عرفة و"ياسمين"، لمواجهة المصير المحتوم.

لم يكن "محمد" موجودًا معهم.

دخل الزوجان إلى وكيل النيابة، بينما ظل كل من "ياسمين" والحاج عرفة في الانتظار خارجًا.

تفاجآ بوجود المهندس "محمد" جالسًا أمام وكيل النيابة. شعرا بالصدمة...

"وكيل النيابة": "أريد أن أفهم مدى الصداقة العميقة التي تجمعكما مع هذا الرجل؟

لقد سافر هذا الرجل مع محاميه منذ أسبوعين إلى المغرب ليجلب صور كل التحقيقات التي تمت في قضية العرافة ومقتل السيدة أم "مليكة"، وحرص على توثيق تلك التحقيقات، وبعد الاتصال المباشر بالنيابة المسؤولة عن القضية في المغرب، تم التأكد من عدم تورط "مليكة" في تلك

القضية. خاصة بأن ذلك الشاب الأسمر أكد على انتحار الفتاة، وأكد الطب الشرعي صدق أقواله".

غادر الجميع سرايا النيابة، كان مشهدًا يستحق التوقف.....

"مليكة" تتوسط أحضان أبيها وزوجها...كانت تتنفس بتنهيدة عالية، مسموعة الصوت، كتنهيدة عليل خرج من بين أسوار المرض شافيًا، تتشبث بيد أبيها بيمناها، وبيد زوجها بيسراها.

لم تستطع "ياسمين" أن تُقاوم الشعور باحتضان "محمد" بسرعة ولهفة زائدة.

انطلق الجميع إلى الحياة، انطلقوا..... وقد آمن كل واحد منهم أن الحب لا يزال موجودًا، وأن تلك (الوخزة) التي تُصيب القلب كالسهم الثاقب، لها فعل السحر، لا يقوى أحد منا على مقاومة ذلك السهم اللذيذ، ولا يقوى على التصدي له، فأينما ينفذ يندلع الشغف واللهفة والعشق والشجن الهائم الذي يطغى على صاحبه.

تمرُ السنون تلو السنون.....

ويظن الكثير من البشر أنه لم يعُد هناك مكان للحب، لم يعُد هناك ما يُسمى بالوخزة

ولكن دائمًا وأبدًا.....

سيظل ذلك السهم الخفي يخترق قلوب العاشقين.

ستظل تلك (الوخزة) حتى لو كانت في زمن الفودو.

"سعاد محمد "

تمت